السلام عليكم

قصص قصيرة

تأليف

عايدى على جمعة

الكتاب: السلام عليكم (قصص قصيرة)

الكاتب: عايدى على جمعة

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

جمعة ، عايدى على

السلام عليكم / عايدى على جمعة

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٤٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٧ – ٢٢ – ٥٢٢ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٠٧٥٧ / ٢٠٢٢

السلام عليكم

قصص قصيرة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

الإهداء

إلى كل مهمش في هذه الحياة

لكم أخذ الناس من ثراء حياتك أغلى الكنوز.

عايدي

علاء الدين

حين جلس في شرفته بمنزله الذي أصبح مختفيا تماما بعد أن قامت أمامه بيوت شاهقة، وسدت عنه الهواء والأفق نظر إلى هذه البيوت الشاهقة بعين الأسى، وجاءه من الماضي صوت والده وهو يصيح: هِشْ هِشْ هِشْ امشِ. هذه الكلمات تتردد كثيرا على لسان الأب المسن ذي العيون المقتحمة الحادة النظرة في عدوانية شديدة لكل من يقترب من أرضه الواسعة التي تقع في أحسن موقع في مدخل قريتنا، فإذا اقتربت بطة من أرضه نهرها بشدة، وربما جرى خلفها بطوبة يستملحها، ويضرب البطة في رأسها فيشدخها، وقد كثرت خناقاته مع أهل القرية، فكل من يسير على الحد يصبح عدوا له يكيل له سيولا حادة من الشتائم التي لا تنتهي. وقد عرف عنه أهل القرية ذلك فتجنبوه، بل سرت هذه المعرفة إلى الحيوانات والطيور نفسها فبعدت عن حقله.

وقد كان لهذا الشيخ المسن إخوة كثار، وكلهم متعلمون تعليما جيدا جدا، فاستولى على نصيبهم من الميراث، لأنه الأخ الفلاح الذي يعمل في الحقل طيلة حياته في حين كانوا يتعلمون وينفقون من خيرها ولا يعملون، فتركوا له أنصبتهم من الميراث بغير اكتراث، فحالتهم جيدة جدا بوظائفهم الكبيرة، ومكانتهم القيمة في قريتنا. ورغم أن كل واحد منهم له أولاد كثار والشيخ له ولد واحد فقد ارتضوا أن يريحوه، لأنه أخوهم العزيز عليهم.

وقد عاش هذا الشيخ مقترا على نفسه حقيقة فهو ينفق اليوم

واليومين على طعام واحد لا يكاد يغيره، وربما ظل أسبوعا كاملا أو أكثر بجلباب واحد لا يغيره أيضا، وعلى مدار عمره الطويل لم يكن له غير جلبابين: جلباب بني اللون وجلباب آخر أبيض اللون، وكان أكثر ظهوره بجلبابه البني. وكانت زوجته وابنه الوحيد لا يعترضان عليه أبدا، راضيين بالمعيشة معه على هذا التقتير الواضح.

إنه الآن يتذكر تلك الشائعة التي تناهت لسمعه في يوم من الأيام، حيث همس أحد رجال القرية لصديق له بأن هذا الولد الوحيد ليس ابنا لهذا الشيخ من صلبه، وإنما انحدر نتيجة لعلاقة آثمة مع أحد رجال القرية المعروفين بالحيوية الدافقة. والغريب أن هذا الصديق اقتنع تماما لأنه من وجهة نظره لم ير شبها في الجسم والوجه بين هذا الشيخ المسن من ناحية وبين ابنه المزعوم من ناحية أخرى.

إنه الآن يتذكر هذا الجار الريفي ذا الحيوية الدافقة، والذي رحل عن هذه الدنيا قبل رحيل والده المسن بسنوات طويلة، يتذكر ملامح وجهه، ويتذكر جسمه وحركاته وصوته، ويقارن كل ذلك بوجهه هو وجسمه هو وحركاته هو وصوته هو، فيجد أن هناك قربا واضحا في الملامح والجسد، بل إنه في شرفته تلك التي حجب عنها الضوء والهواء يستحضر ابنا لهذا الجار الريفي ذي الحيوية الدافقة فيقع في نفسه أنه أخوه لا محالة، فهناك اقتراب واضح في الملامح والجسم أيضا، ولكنه جاهد كي يطرد هذه الخواطر التي تسوؤه، ويستحضر والده المسن ذا الحدب الواضح عليه.

وكعادة الأيام مرت متواترة، وقد وقع في الظن أن هذا الشيخ المسن

سيعيش إلى الأبد، ولكن فجأة عاد في منتصف النهار من حقله الواسع وهو يرشح عرقا، وقد ارتفعت حرارته بصورة واضحة، وبعد يومين فقط غادر دنيانا إلى بعيد، ورقد بجانب آبائه في مقابر القرية الوادعة.

إنه يتذكر الآن هذا الوالد المسن وهو محمول على الأعناق في هدوء تام، وقد سار الرجال بنعشه من بيته مارين على أرضه الواسعة، وأثناء سير النعش كان هو ضمن مشيعي أبيه، وفجأة حانت منه التفاتة إلى قطيع من الغنم يثير ترابا كثيفا على السكة الزراعية، وقد انحرفت أغنامه عن السكة ونزلت إلى الأرض الواسعة الممتدة، فتوقف النعش بحسم واضح، ومال برأسه ناحية الأغنام، وصاح صاحبه: هِشْ هِشْ هِشْ امشِ. فرجعت الأغنام مذعورة، وبعدت عن الأرض.

وهنا أطلت في ذهنه صورة أمه ذات الحيوية الدافقة، والتي كانت تصغر والده المسن بأكثر من عشرين عاما، ورغم ذلك فقد لحقت به بعد سنوات قليلة جدا، وأصبح الابن الشاب ذا ثروة ضخمة على غير العادة في قريتنا، وفي وظيفة محترمة، وتزوج وأنجب.

بل إن قطعة الأرض الكبيرة جدا التي كان يملكها أبوه الشيخ، وآلت إليه وحده عن طريق الميراث ارتفع ثمنها بصورة جنونية، لأنها أصبحت في كردون المباني. وبدأ الكثيرون من أهل القرية يذهبون إليه لكي يشتروا منه قيراطا أو قيراطين، ولكنه تذكر أباه الشيخ المسن ذا العيون المقتحمة، والذي كان كثيرا ما يشاهده الناس جميعا وفي يده طوبة حادة يضرب بها كل من يقترب من أرضه، فقال في نفسه: لن ينزل هذه الأرض أحد.

إنه يتذكر الآن في هذه الشرفة التي حُجب عنها الهواء والأفق والشمس والقمر والنجوم ذلك اليوم الذي اشترى فيه سيارة على الزيرو، وكان يذهب بها إلى عمله، كما يتذكر أيضا بكل وضوح تلك الليلة التي ارتاد فيها مواقع التواصل الاجتماعي لأول مرة، ففتح الفيس فجأة فأطلت عليه صورة إحدى صديقاته على الفيس، وهي في ثياب العمرة البيضاء، وقد بدا السلام النفسي على وجهها في المكان المبارك، حيث تطل من خلفها الكعبة المشرفة بكسوتها السوداء، وقد حازت هذه الصورة على الكثير من الإعجاب والتعليقات المباركة والردود عليها.

يتذكر أيضا حين نزل بالماوس في تلك الليلة، وإذا بالصورة التي تحتها لصديقة أخرى من صديقاته على الفيس، وهي تقضي عطلتها الصيفية على شاطئ البحر، وقد بدا جسمها الأبيض البض والمايوه البكيني الأسود والسنتيانا السوداء المكتنزة بنهدين نافرين. وقطرات من مياه البحر تغسل شعرها ووجهها وجسمها، وقد ظهرت قدماها الحافيتان على رمال البحر. وقد حازت هذه الصورة على الكثير من الإعجاب والتعليقات والردود عليها.

على الفور أرسل لها رسالة على الخاص يبدي إعجابه الشديد بها، ويتمنى لها كل فرح في الحياة.

ردت عليه شاكرة ممتنة لذوقه الرفيع. لم ينم صاحبنا ليلته، في حين كانت زوجته تغط في نوم عميق، لا تدري بنيران محترقة أتت على روح زوجها من صورة صاحبته على الفيس بوك.

دخل مرة ثانية على الفيس وأمعن النظر في الصورة التي سحرته ثم أرسل لها أزهارا كثيرة، وكلمات تذوب رقة.

بادلته أزهارا بأزهار وكلاما رقيقا بكلام رقيق، فانتفض قلبه وعلى الفور أبدى لها أمنيته الكبيرة في لقائها. فعرفت منه أن حياته المادية متيسرة جدا ولديه سيارة يستطيع أن يذهب بها إلى المكان الذي تحدده.

حددت معه موعدا والتقيا وكانت ساحرة حقا فقد بدا وجهها الأبيض المشرب بحمرة وجسمها اللدن آية صارخة من آيات الحب والهوى.

حين أوى إلى مخدعه في هذه الليلة بعد لقاء عشيقته التي انتفض لها كل كيانه لم يستطع أن يلمس زوجته، فنام على حرف السرير مبتعدا عنها قدر الإمكان، وحينما يشعر بيديها تلمسه وهي نائمة بقصد أو بدون قصد، سرعان ما ينفر جسده منها، ويبعد يديها بحزم واضح.

أغمض عينيه فشعرت زوجته بأنه لا سبيل إليه في هذه الليلة فاستسلمت لنوم عميق، وشخير مفزع جدا لم يشعر ببشاعته قبل هذه الليلة.

وجعل يتنفس فاتنته البلطية، وهنا تذكر صباه حينما كان ينزل من باب بيته المطل على الترعة الكبيرة في شمال القرية، ويصطاد الأسماك مع رصفائه، وكان هو الأكثر حظا منهم جميعا حيث كان ماهرا جدا في اصطياد السمك البلطي، وكم من بلطية فاتنة وقعت في شباكه، ولم تقع في

شباك رصفائه، هاهم رصفاؤه الآن أشد فقرا واحتياجا ومعظمهم لم يستطع أن يتزوج أصلا، أما هو فها هو القدر منحه ثروة طائلة وزوجة مخلصة وهاهي جنية مسحورة وقعت في غرامه من أول حديث بينهما على الفيس بوك، وقد ظن أن فاتنته تلك قد تكون ليست جميلة ولكنه حينما قابلها وجدها آية فاتنة من آيات السحر والجمال.

لم يدر كيفية ذهاب روحه إلى وادي النعاس العميق، فقد انطفأ النور في مخه فجأة وهو نائم على سريره بجانب زوجته، وذهب عبر وادي النوم السحيق كل مذهب، وفجأة أشرقت نفسه بحلم من أحلامه الكثيرة. لقد رأى نفسه على شاطئ الترعة المليئة بالمياه أمام منزله الريفي ذي الهواء المنعش، والمملوء بعبير الحقول الممتدة، وقد ألقى سنارته التي لا تخيب عبر مياهها، وما هي إلا لحظات يسيرة حتى اهتز خيط السنارة المتين اهتزازا عرف منه أن بلطية وقعت في طريقه، فرفع سنارته بشدة ولشد ما أدهشه الجمال الفائق والحيوية الدافقة لهذه البلطية، وتثني جسمها اللامع في ضوء الشمس فأخذها على الفور من السنارة، ووضعها في سلة كانت معه، واكتفى بها، ورجع على الفور إلى بيته القريب جدا من هذه الترعة، ووضع السلة في حجرة خاصة جدا، وأخرج منها البلطية الفاتنة، وهو مشدوه من جمالها وحيويتها، ومطمئن تماما إلى استسلامها له، وكأنه صاحبها، ولكن البلطية الساحرة تحركت فجأة بعد أن كانت مستسلمة تماما له، واهتز جسمها اهتزازات عنيفة جدا، وغرست شوكة في إصبعه الأيمن فنزف قطرات الدماء. وانطلقت عبر صالة البيت، إلى الباب الكبير، ثم عبرت

شاطئ الترعة، ورمت نفسها في المياه المتدفقة بمهارة فائقة، ونظر صاحبنا فإذا مياه الترعة المحدودة تتحول إلى بحر واسع جدا ليس له قرار، فكلّ بصره وانقلب خاسئا وهو حسير.

وهنا أحس بألم حاد في إصبعه الأيمن ورأى قطرات الدماء على أرضية بيته، وعلى شاطئ الترعة، ونظرت زوجته إلى دمائه النازفة متحسرة حزينة، وجاء أهل البلد جميعا ورأوا دماءه فتعجبوا من ذلك، ولكن ما حز جدا في نفس صاحبنا وجه أبيه المسن وهو ينظر بعينيه المقتحمتين الحادتين إلى دمائه، وقد طفر الحزن الصامت من وجهه، ونظر إليه نظرة عتاب صامت، زلزلت كيانه كله، وجعلت رأسه تنخفض انخفاضا كبيرا إلى الأرض في حياء لم يشعر به من قبل، فقال صاحبنا لأبيه: سامحني يا أبي، فنظر له الأب الشيخ ولم يقل شيئا.

وهنا انتفض صاحبنا فجأة من نومه، ورجع إلى عالم اليقظة وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

إنه يتذكر الآن وهو في شرفته الريفية التي حُجب عنها الهواء والأفق والشمس والقمر والنجوم حين قام فأخذ كوبا من الماء القراح وشربه مرة واحدة فاطمأنت نفسه وعاد إليه الهدوء. ولكن النوم كان قد فارقه، ففتح صفحته على الفيس بوك فوجد ساحرته الفاتنة نشطة على الفيس فأرسل لها السلام فردت عليه، ودار حوار طويل ممتع بينهما تحركت فيه الأشواق النائمة والرغبات الدفينة، وأخبرته بأنها اليوم وحيدة في بيتها، فزوجها سيسافر إلى القاهرة في الصباح لزيارة أخته، وسيبيت ليلته هناك. وهنا

أبدى لها رغبته العميقة في زيارتها، فرحبت به على أن يتلطف في الدخول ولا يشعرن به أحدا.

لم يكذب صاحبنا خبرا، فأخبر زوجته في الصباح بأنه سيذهب في المساء إلى المدينة التي تتبعها قريته للقاء رفيقه في العمل في بيته، ومن الممكن أن يعود هذه الليلة قرب الفجر أو يبيت، لأنه سيكون في زيارة صديق له في المدينة التي تتبعها قريته.

دخل صاحبنا الحمام وحلق ذقنه بعناية فائقة وسعادة غامرة وكانت خلاياه ترقص فرحا وأخذ دشا ممتعا ووضع العطور على جسمه وارتدى أحسن ما عنده من ثياب فبدا نابضا بالحيوية الدافقة والإقبال الفذ على الحياة والرضا التام بحب الأقدار له، فلديه زوجة مخلصة لا تفكر أصلا في خيانته ولديه عاشقة فاتنة تهب نفسها له بلا مقابل وبرضا تام. وحينما تذكر زوج عشيقته ابتسم ابتسامة المنتصر.

عند أذان العشاء استقل صاحبنا العاشق سيارته، ثم انطلق إلى المدينة التي تتبعها قريته، وركن السيارة في مكان آمن بعيدا عن بيت عشيقته الفاتنة، وتسلل بمهارة وخفة وفرح كبير حتى وصل إلى جرس بابها ودق الجرس مرة واحدة وسرعان ما فتحت له آية من آيات الجمال والفتنة إنها عشيقته ولا شئ غيرها.

ابتسمت له ابتسامة حلوة جدا فابتسم لها بفرح طفولي غامر، ودلف إلى الصالة فأغلقت فتنته الباب بعد أن ألقت ببصرها يمينا وشمالا فلم تجد أحدا، قالت له: هل رآك أحد؟

قال: لا.

فابتسمت له، وغمزت له غمزة بعينيها جعلت خلاياه تنتفض.

قالت له: تشرب إيه؟

قال: شكرا.

قالت: هشرب شاي. أعمل لك معي؟

قال: ماشي.

دخلت المطبخ وأعدت كوبين لامعين من الشاي، ووضعت بعض البسكويت على الصينية. وبعد أن انتهيا دخلت بصاحبنا حجرة النوم، ففرد لها ذراعيه يريد احتضانها، قالت له: اهدأ يا سيدي، سأذهب للحمام وآخذ دشا سريعا.

قال لها: أنا أخذت دشا قبل أن أجئ.

قالت حسنا، إذن اخلع ملابسك، واستعد لعناقي بعد هذا الدش السريع.

رقص صاحبنا فرحا، وطفرت الحيوية من خلاياه، وتحلل من ملابسه تماما، ووضع اللحاف على جسده لحين مجئ صاحبته الفاتنة.

وما هي إلا لحظات كلمح بالبصر وفتحت باب حجرة النوم ملكة متوجة، تلبس روبا أبيض على قميص نوم أسمر، وقد فردت شعرها المبلول على كتفيها، ووضعت مكياجا خفيفا جدا على وجهها المضئ، وقد ظهر

نصف صدرها المرمري، فهاج صاحبنا وأزاح اللحاف عن جسده الممشوق، ونهض لاستقبالها بين ذراعيه، فبدا عاريا تماما، وهنا دخل أربعة رجال أشداء جدا، وبيد كل منهم مطواة مفتوحة، فارتعش صاحبنا وسقط على الأرض لا تحمله قدماه من هول المفاجأة.

تحلق الرجال الأربعة حوله، وقد ضربه أحدهم بظهر المطواة في كتفه فنظر صاحبنا مذعورا. وقد عرف صاحبنا منهم أن هناك كاميرات صورته وهو عار تماما كيوم ولدته أمه.

قال صاحبنا: أرجوكم لا تقتلوني، فأخرج أحدهم وصل أمانة بثلاثة ملايين جنيه، وطلب من صاحبنا التوقيع عليه، فورا، وطلب منه أيضا أن يوقّع على عقد بيع وشراء لسيارته المركونة في الميدان القريب.

وقّع صاحبنا، فتركوه يلبس ملابسه، وقد أخذوا منه موعدا محددا لسداد هذه الملايين الثلاثة. ثم تركوه يذهب لحال سبيله.

عاد صاحبنا تكاد لا تحمله قدماه من هول ما تعرض له، ووجد في الموقف سيارة أجرة تنتظر حتى يكتمل عدد الركاب المخصص لها، فدلف إلى مقعد فيها، وقد وضع رأسه بين كفيه، وهنا تذكر شوكة السمكة البلطية التي انغرست بعنف حاد في إصبعه الأيمن، وجعلته ينزف كتلا من الدم رآها كل من يعرفه، والكثير جدا ممن لا يعرفه، فقد أدرك الآن أن فضيحته ستكون بجلاجل.

انسل إلى سريره في هدوء، فوجد زوجته المخلصة تغط في نوم عميق،

فنظر إلى وجهها الذي شعر الآن فقط أنه وجه ملائكي، لم ير منه إلا كل خير، فقال في نفسه: ما حدث لي هو ذنب زوجتي، ولكنه عاد فألقى باللائمة كلها على زوجته، فهي لم تستطع أن تملأ الفراغ الروحي الرهيب الذي يعانيه، ولم تستطع أن تجعله يشعر بما كان يتوقعه من سعادة. لا يدري صاحبنا كيف نام ليلته، ولكنه في الصباح أخبر زوجته أنه باع السيارة، لكي يشتري سيارة أحدث منها، فلم تكذبه الزوجة الطيبة، ولم تسأله عن ثمنها.

وفجأة سرى خبر في القرية والقرى المجاورة بأن علاء الدين ذلك الفتى الواسع الثراء، العظيم المكانة يبيع في أرضه، وبدأ الناس يقبلون عليه، يشتري كل واحد منه قيراطا من أرضه أو قيراطين، وما هي إلا فترة بسيطة جدا حتى تحولت الأرض الطيبة المثمرة إلى كتل خرسانية شاهقة غيرت ملامح قريتنا تماما، ولأن الأرض غالية جدا فإن من اشترى من علاء الدين لم يكن من قريتنا أصلا، وإنما كانوا من قرى شتى اجتمعوا واستوطنوا قريتنا، وسيطروا على مدخلها الشمالي كله فأصبح في أيديهم، وفتحوا دكاكين كثيرة جدا فازدادوا ثراء على ثرائهم وقوة على قوتهم، وبدأوا يتحركون في قريتنا بأشكالهم الغريبة عن أشكال أبناء قريتنا، ولهجتهم المختلفة تماما عن لهجة أبناء قريتنا، فأصبحت مفاتيح قريتنا بأيديهم وتعود الناس على رؤيتهم، وبمرور الزمن ولد أبناؤهم متتابعين في قريتنا فأصبحوا أبناءها وصرنا نحن غرباء فيها، أما علاء الدين فقد أعطى كل هذا المال لهؤلاء الأربعة نظير وصل الأمانة الذي كتبه على نفسه، وفوجئ هو نفسه

بأن هؤلاء الأربعة أصبحوا من سكان قريتنا ومن ذوي الوجاهة والمكانة فيها، بل أصبحوا هم أهل الحل والعقد فيها، بل إن مقام الشيخ البهجوري المتصوف الذي يمثل تحفة معمارية ادعى أحد هؤلاء الأربعة أنه جده الأعلى، وأن عائلته هي من بنت هذا المقام. وانزوى علاء الدين في بيته الريفي الضيق، الذي حجبته منازلهم الشاهقة.

وهنا نادته زوجته فانتبه، وذهب إليها، وكانت تريد منه أن يحمل معها السجادة المغسولة، لأنها ثقيلة عليها جدا، لكي ينشراها سويا في الشرفة، وحينما تم نشر هذه السجادة كانت البيوت الشاهقة تكاد تضغط بلا رحمة على أعصابه، فنظر إلى شرفاتها الواسعة الممتدة التي تنعم بالشمس والهواء والآفاق الممتدة، فأحس بإجهاد شديد، فجلس بعد أن دخلت زوجته المطبخ، وقد وضع رأسه بين يديه، وسمعته العصافير وهو يقول: رحمك الله يا أبي. أي رجل كنتّ؟.

وفجأة سمع هيعة في الشارع الضيق الذي تبقى بعد أخذهم كل أرضه، فنظر من الشرفة فرأى ابنته الكبرى، وقد التف حولها الأطفال والبنات في مثل سنها، والدماء تنزف من أنفها، وحينما أخذه الغضب لم يستطع أن ينفذه، فقد عرف أن الابن الكبير لأحد هؤلاء الأربعة هو من ضربها لكمات قوية في أنفها، جعلها تنزف حين كانت تلعب على الترعة مع البنات فجاءت باكية والدماء تتساقط على ثوبها. ففرت دمعتان كبيرتان من عينيه رغم اجتهاده بكل قوة أن يمسكهما. لأنه قد شعر شعورا حادا بأنه أشهر غريب في أرضه.

سعد أفندي

فجأة أخبرني صاحبي بعد صلاة العصر في المسجد الكبير بقريتنا أن مكتبة سعد أفندي رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ألقيت في الشارع أمام بيته، فقد آل بيته الريفي الواسع كما آلت أرضه لأبناء إخوته وهم لا يبالون بالكتب، فألقوها في الشارع، وداست عليها ماشية الفلاحين أثناء العودة مساء من حقول القرية المترامية.

قلت لصاحبي: ومتى حدث ذلك؟

قال: من يومين.

قلت له: ولم لم تخبرني؟

قال: كنت أعمل مع أبي في الحقل، ولم أرك، ولكنني أحمل هدية لك من كتب سعد أفندي. ثم أعطاني كتاب رباعيات الخيام ترجمة محمد السباعي.

شكرته بشدة وسلمت عليه وافترقنا، فعدت ومعي رباعيات الخيام إلى بيتنا الريفي الواسع، وصعدت إلى المقعد فوق سطح البيت، وجلست فيه بمفردي، ونظرت في الكتاب نظرة وقلبت صفحاته فأحسست بروح سعد أفندي فيه، فنظرت من نافذة المقعد الواسعة إلى الفضاء العريض في سماء قريتنا، فأبصرت حمامة بيضاء تحلق في الأفق الممتد، وما لبثت أن لحقتها ثلاث حمامات بيضاء أيضا حتى اكتمل موكب الحمام، ورغم تحول

هذا الحمام في عيني بفعل الإمعان في التحليق إلى نقاط بيضاء لامعة في عقلي فإنني ظللت أتتبع هذا السرب الهائم الحزين، والذي شعرت بأنه يمضي إلى غاية بعيدة جدا لا يعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى. وهنا قفزت إلى ذهني صورة سعد أفندي رحمه الله. فمر في ذهني بعض ما أعرفه عنه، فوضعت يدي على كتاب رباعيات الخيام، والذي تطل من صفحاته صورة سعد أفندي الراحل عن دنيانا، وبدأ شريط الذكريات يتتابع في ذهني.

حين رأيت سعد أفندي في أواخر أيامه كان رجلا طاعنا في السن، في صوته بحة وفي نظرته عمق الحياة وهو يلبس نظارة سميكة لا تفارق وجهه أبدا صيفا أو شتاء، وكان في جسده ملامح شموخ قديم واضحة. يسير في شارع القرية الواسع من بيته المبني من الطوب اللبن والذي يقع على الشارع الرئيسي إلى المسجد في هدوء وحكمة الكبار، وقد وضع يديه خلف ظهره، ويلبس جلبابا لونه هادئ ونظيف وطاقية بيضاء من القماش تتميز عن طواقي الفلاحين.

تزوج سعد أفندي في شبابه ابنة ناظر القرية المجاورة، وكانت آية من آيات الصباحة والجمال، ولكنها ما لبثت بعد أيام قليلة جدا معه أن تركت له البيت إلى بيت أبيها مفارقة له.

لكم كانت صدمة حقيقية اهتز لها سعد أفندي، فقد سار الخبر في القرية كلها بأن زوجته الحبيبة فارقته، بل هي مصرة على عدم العودة إليه مهما كان الثمن.

وحينما أراد أبوها معلم الأجيال إرجاعها إليه رفضت بشدة. لكم كان حزنه شديدا وهو يرى ابنته الجميلة لا تريد العودة لبيت زوجها. أسرت ابنته لأمها بأنها لا تجد نفسها أبدا معه، ولا تستمتع بعلاقة حميمة مع هذا الزوج. على الفور تم الطلاق.

لمح سعد أفندي عنكبوتا في بيته، ولكنه لم يهتم، غير أنه رأى العناكب تزداد يوما من بعد يوم. فقرر أن يجدد بيته.

ذهب سعد أفندي إلى القاهرة وتزوج بفتاة نحيفة الجسم جدا، وأنجب منها ولدا وبنتا. وأعطى كل طاقته من أجل أن يحسن تربيتهما، كبر الولد وكبرت البنت ودخل الولد كلية الحقوق. لكم كان هذا الولد مثالا للشاب النابه المحترم. وكان يتميز بالنظافة التامة، نظافة في الثوب واليد اللسان، لم يسمع أحد عن سعد أفندي أو عن أسرته ما يسوء.

وكانت الأسرة تعيش في سعادة ورضا، فقد كان يعيش في بحبوحة من العيش فله أرض واسعة ورثها عن والده وله مرتب من التربية والتعليم. وهو محب للقراءة، وله مكتبة ضخمة بذل في سبيلها من ماله الكثير. وله زوجة صالحة وولد نابه وابنة جميلة. وقد كانت زوجته سيدة طيبة حقا، أعطت كل حياتها في سبيل إسعاد أسرتها.

لقد بدت ملامح السعادة وأجنحتها ترفرف في بيت سعد أفندي، وانحسرت العناكب تماما عن هذا البيت الريفي الواسع.

كنت وأنا طفل صغير في قرية الجواشنة أسمع نشيد مدرسة قريتي

الابتدائية والتلاميذ يهتفون بصوت يسمعه أهل القرية كلها بل وتسمعه بعض القرى المجاورة وهم يهتفون مصحوبين بقرع الطبلة المدرسية القاصف:

تم برتت تو

تم برتت تي

من نحنو

دواشنة

ابتدائية

شعلة نار

ثم ينخرطون في تصفيق حاد يمنح لبيوت القرية وحيواناتها وأشجارها وزروعها نشاطا فائقا وحيوية زائدة.

لم يوجد أحد في القرية على مدار سنوات طويلة لم يردد هذا النشيد، عرفت بعد ذلك حينما كبرت بأنه من تأليف سعد أفندي.

ماتت ابنة سعد أفندي فجأة وهي في شرخ شبابها دون سابق مرض، فخيم طائر الموت الحزين في حجرات بيته. وبدأت ملامح بعض العناكب تظهر في جنبات هذا البيت، بعدها بفترة قصيرة جدا مات شهدي زينة شباب أهل القرية وهو في العام الثالث من كلية الحقوق.

وأصبح سعد أفندي وزوجته الطاعنان في السن بلا أولاد فجأة. لكم كان منظرهما ينم عن حزن واضح وصبر لا يتزعزع على قضاء الله.

كانت خالتك بهيجة أو خالتك أم شهدي كما كنا نعرفها ونحن في طفولتنا الباكرة تلبس فستانا أسود لا تغيره أبدا، وتسير في شارع القرية الواسع في هدوء وتؤدة.

كانت سيدة نحيفة الجسم جدا وقصيرة جدا بيضاء الوجه وعيونها واسعة ووجهها مدور. كانت كل خميس تحمل الرحمة في يدها ذاهبة بها بعد صلاة العصر إلى مقابر القرية. وكان الأطفال يتتبعونها، فقد كانت رحمتها مختلفة تماما عن رحمة باقي نساء أهل القرية.

فقد كان في رحمتها العنب والموز وغيرها من الفواكه حسب المواسم، وفي رحمة النساء الخبز المصنوع من القمح أو من الذرة.

وكانت الفاكهة عزيزة حقا في قريتنا فلا نكاد نراها إلا على فترات متباعدة جدا، بل إن الكثيرين من أهل القرية يمر العام كله ولا يرونها، ولا تشغله أصلا، وربما ذهبت المرأة من الفلاحين إلى المركز من أجل التسوق ولا تأتي معها بالفاكهة.

كانت مقبرة شهدي رحمه الله يوجد على رأسها الكثير من أطفال القرية وشيوخها وهم منهمكون في تلاوة سورة يس، وكان الأطفال يهتفون والنبي يا أم شهدي، أنا ما ختش يا أم شهدي وهي تعطي الكل بسخاء، لقد رأيت هذه السيدة كثيرا جدا عبر شارع القرية الواسع ولم يتصادف أبدا أن رأيتها ضاحكة أو حتى مبتسمة. وكذلك سعد أفندي.

كثيرا ما كان سعد أفندي بعد صلاة العصر بفترة أراه فوق سطح

بيته الريفي الواسع جالسا وحده، وهو يديم النظر في أفق قريتنا الممتد، وكثيرا ما كان بصره يتجه إلى الجميزة العجوز القابعة على حافة الترعة، بجانبها أشجار الصفصاف المتراصة، وقد انهدلت أغصانها في حزن تام إلى مياه الترعة المتهادية.

كانت حقول القمح الممتدة مهبط أسراب من العصافير، فتتبعها عيون سعد أفندي، وسرب حمام قد تعود قبل المغرب أن يحلق في أفق قريتنا الممتد قد استأثر ببصر سعد أفندي. رأيت وجه سعد أفندي الخاشع يطفر بحزن تنوء بحمله الجبال حين يرى سرب الحمام وهو يغوص في اللانهاية.

حين تسحب الشمس أشعتها المتناثرة على بيوت قريتنا وحقولها لكي يهبط الظلام يشهق سعد أفندي وهو يرى فلذتي كبده وهما يرحلان معها.

في يوم من أيام الصيف القائظ أصيب سعد أفندي بحمى شديدة، وذهب أحد أهل القرية بشاله لكي يأخذ منه الشمس، فعرف الفلاحون البسطاء خطورة حالة سعد أفندي فبدأ الجميع في زيارته وهم يتمتمون بالدعاء الخالص له، ولكن هيهات هيهات، فحالته تسوء، وبدأ الفلاحون يكثفون زياراتهم لسعد أفندي وقد استقر في أذهانهم أن ساعة الرحيل قد أزفت.

وقد صدق حدسهم فهم يعرفون الموت جيدا في عيون من اقترب من الموت من أهل القرية، وفجأة انتفض سعد أفندي جالسا ـ أمام زائريه ـ وهو يحدق ناحية الباب وقد جحظت عيناه وفرد ذراعيه لكي يحتضن ابنه

شهدي الذي دخل من باب البيت تحيطه هالة نورانية، وما لبثت أن تبعته أخته في ثوبها الأبيض وهي تمد يدها لأبيها قائلة له: عم مساء يا أبي.

وما لبث نعش القرية الوحيد أن حمله أربعة رجال من مسجد القرية ذاهبين به إلى بيت سعد أفندي وقد امتلأ شارع القرية الواسع والجرن الكبير بالفلاحين وبعد ساعة خرج النعش الوحيد من بيت سعد أفندي، وخرج الناس وهم يحملونه ذاهبين به إلى مسجد القرية مصلين عليه، ثم عبر الشارع الواسع إلى المقابر.

وظلت أم شهدي تحمل الرحمة كل خميس إلى زوجها الحبيب وفلذتي كبدها، وظل أطفال القرية يتتبعونها وهم يهتفون طالبين منها الفاكهة في المقابر.

كثيرا ما كنت أرى أم شهدي عبر شارع قريتنا الواسع، في ثوبها الأسود الداكن الذي لم تغيره أبدا على مدار سنين متصلة، ولكني أبدا ما رأيتها تضحك أو حتى تبتسم على مدار هذه السنوات الطوال ذلك رغم الطمأنينة التامة التي تظهر على وجهها.

وما لبثت أم شهدي أن وجدوها في بيتها الريفي الواسع وقد رقدت رقدتها الأخيرة، فحملوها إلى حيث ترقد ابنتها.

أصبح بيت سعد أفندي الريفي الواسع موئلا للتراب والعناكب، وبعد أن كانت عتبته أعلى من مستوى شارع القرية ارتفع الشارع وأصبح باب البيت هابطا، وأصبحت نوافذه محملة بالأتربة العتيقة.

ولكني سمعت من بعض رصفائي من أطفال القرية الذين يسكنون بجانب بيت سعد أفندي بأنهم راوا نورا في حجرات البيت، وسمعوا سعد أفندي يشرح لابنه وابنته، بل و ينادي على أم شهدي بأن تأتي بالطعام.

ومازالت قصة أحد الفلاحين تتردد في جنبات قريتنا والقرى المجاورة بأنه بعد أن عاد في آخر الليل من حقله، وقد هبط الضباب الكثيف على أكواخ قريتنا وشوارعها أنه شاهد في شارع قريتنا الواسع شخصا يلبس جلبابا نظيفا وطاقية تختلف عن طاقية الفلاحين وهو يسير بهدوء تام وقناعة مفرطة في حطام الدنيا، وحينما ألقى عليه السلام رد عليه بصوت واضح، وحينما سأله من أنت قال: أنا سعد أفندي، فأطلق ساقيه للريح، حتى دلف تحت الغطاء في بيته وفرائصه ترتعش.

أما الفلاح الآخر فقد أقسم بالأيمان المغلظة بأنه كان يصلي العشاء قرب الفجر، ولم يكن معه أحد في المسجد، ولكنه أحس وهو في الركعة الثانية أن هناك شخصا يصلي بجانبه، وحينما انتهى من صلاته وسلم، التفت بوجهه ناحية من يصلي بجانبه فرأى وجه سعد أفندي فأطلق ساقيه للريح تاركا بلغته، ومصطدما بالسور الصغير في مصلية المسجد، ولكنه عاد رغم الألم الفائق وقفز من فوق السور، خالعا جلبابه الريفي حتى لا يعوقه عن سرعة الطيران إلى بيته.

وقد ورث تركة سعد أفندي ابنا أخيه، وكان من ضمن ميراثه مكتبة مذهلة حقا بها كتب قيمة، ولكنهم ألقوا بالكتب في شارع القرية الواسع، وقد حصلت على ديوان رباعيات عمر الخيام ترجمة محمد السباعي، كما

سبق القول، وكان ذا تأثير كبير عليّ في هذه المرحلة البعيدة. فقد بهرتني رباعيات الخيام هذه، وما زلت أردد كثيرا قول عمر الخيام:

عجبـــا للـــروح إن كـــان يطيـــق نضـــو سـربال مـن الطـين صـفيق

وسمـــوا لمـــدى الـــنجم الســـحيق مالـــــه تبـــــا لـــــه قـــــد لزمـــــا

سجنه السفليّ مذموم اللزام

الموبايل

حين رآها وهي تحضن كتبها الجامعية، خطفت قلبه على الفور، فقد رأى فتاة وضيئة الوجه ذات عينين واسعتين، مفعمة بالحيوية وروح الشباب، وقد عقصت شعرها الأسود الفاحم بتوكة ذهبية عريضة، وقد ظهرت ساقاها البيضاوان الممتلئتان من جيبتها الرمادية في حين كان نهداها نافرين وكأنهما طائران متأهبان للانطلاق برشاقة.

وعلى الفور وجد نفسه يصعد خلفها مترو الميرغني، وكان حظه حسنا حين وجد مقعدا فارغا بجانبها، فأحس بالهواء بجانبها معطرا، وحينما وجد اسم الدكتور إبراهيم عماد على كتاب من كتبها أخبرها أن هناك صلة قرابة تربطه بهذا الدكتور النابه، فهو خاله مباشرة، وهنا فتح باب الحوار على مصراعيه معها، فعرفت عنه أنه متيسر ماديا جدا، ولديه شركة مقاولات، وأن لديه أختا وحيدة، وأنه يبحث عن بنت الحلال، وعرف عنها أنها وحيدة أبويها، وأنها في الليسانس، فلمّح لها برغبته في توثيق العلاقة معها من أجل أن تكون شريكة حياته. فأحست بارتياح له، وبدأت تنظر من شباك المترو إلى الأفق الذي بدا ضيقا من خلال عمارتين متوازيتين، فأبصرت طائرين يحلقان في تآلف عميق في سماء قاهرة المعز، فاحتضنت كتبها أكثر وأكثر وكأنها تحضن حلمها حتى يسمع بوضوح دقات قلبها. فأخذ رقم موبايلها وأعطاها رقم موبايله، واستمرت العلاقة حتى كللت بالزواج، في حين تزوجت أخته الوحيدة من فتى تبدو عليه

مخايل الفتوة والقدرة على التأثير الكبير في قلوب النساء.

ورأى الوالدان أن تعيش ابنتهما وزوجها معهما، فالبيت واسع جدا، ويسع من الحبايب ألفا كما يقولون. وبذا أصبح بيت الأسرة الكبير في مصر الجديدة يجمعهم في حضور الأب والأم حيث كان الجو الأسري المفعم بالتراحم هو السائد دائما.

وكانت معاملة الأب والأم لأبنائهما الأربعة كما كانا يدعونهم حسنة جدا، فقد اعتبرا زوجة الابن بنتهما، كما اعتبرا زوج الابنة ابنهم، وسرى جو الحب الكامل بين القلوب الأربعة وكان من يراهم يعرف على الفور أن هناك رباطا متينا من الحب الكامل يربطهم جميعا.

كانت أصناف المأكولات والمشروبات تملأ السفرة، ورفاهية النعيم تشمل الجميع بلا استثناء.

وكان للأخ شقة واسعة في الإسكندرية كثيرا ما يذهب إليها هو وزوجته الحبيبة ويقضيان بها أوقاتا مفعمة برائحة البحر ورذاذه. وربما ذهبت الأخت مع زوجها الحبيب معهما وقضيا أياما متواصلة، وقد بدت أجنحة السعادة الوريفة تملأ سماءهم.

دخل الزوج العاشق لزوجته حجرة نومه فرأى على سريره المنمق صرصارا بشعا، فخلع شبشبه البيتي وصوّب إليه ضربة، ثم حمل أجزاءه المتناثرة وألقى بها إلى الخارج.

لكم كان ضيقه شديدا بهذا الصرصار البشع الذي تسلل إلى مخدعه

المنمق، فهو لم ير صرصارا من قبل في سريره، فالبيت نظيف جدا ويلقى أتم عناية.

حين أبحر به قارب النوم العميق في عرض بحر النعاس الواسع شهق شهقة متحشرجة فقد دخل الصرصار في فمه ووقف في حلقه، والغريب أنه رأى في عين زوجته التي يعشق التراب الذي تسير عليه تعاطفا واضحا مع هذا الصرصار. استيقظ فزعا من هذا الكابوس الغريب. سار في حديقة منزله في عصر ذلك اليوم فرأى ثمار التفاح الناضجة في أشجارها، وملأ صدره من رحيق هوائها الناعم، وأسفل شجرته المفضلة اتكأ وهو يراقب كتل السحب ذوات التشكيلات الرائعة.

كان صوت أم كلثوم وهي تغني قصيدة الأطلال يتناهى إلى سمعه، فامتصته كلمات الأغنية الفاتنة ولحنها وصوت كوكب الشرق، والهواء الناعم ذو الرحيق يلمس براحته اللدنة الممتدة وجهه، وذاب تماما حينما سمع:

هـل رأى الحـب سـكارى مثلنـا
كــم بنينــا مــن خيــال حولنــا
ومشـــينا في طريـــق مقمـــر
تثـــب الفرحـــة فيـــه حولنـــا
وضـحكنا ضـحك طفلـين معـا
وعـــدونا فســـبقنا ظلنـــا

وهنا تذكر فترة الخطوبة اللاهبة بمشاعر الحب العميق لرفيقة فؤاده، ونظر إلى بلكونة حجرة النوم فوجد بابها مفتوحا وقد خرجت زوجته لتملأ ناظريها من جمال الحديقة، وقد تركت شعرها الفاحم على ظهرها وكانت تلبس روبا أبيض وتتمنطق بحزام عريض كشف عن مفاتن جسد ملئ بنبض الحب والرغبة.

قفزت إلى ذهنه فجأة صورة جنة النعيم وما فيها من حور عين بدت في نظره زوجته إحداهن لا محالة، وما في هذه الجنة من ثمار ناضجة ونعيم مقيم لا يزول، ولذا تعجب كثيرا حينما تناهى إلى سمعه صوت أم كلثوم وهي تواصل غناءها لقصيدة الأطلال، وسمع جيدا كلماتها وهي تقول:

يا حبيبي كل شئ بقضاء	ما بأيدينا خلقنا تعساء
ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم	بعد ما عز اللقاء
فإذا أنكر خل خله	وتلاقينا لقاء الغرباء
ومضى كل إلى غايته	لا تقل شئنا فإن الحظ شاء

لقد كان صاحبنا ذا يقين راسخ بأن الجنة موجودة على الأرض، ولم لا وهو يعيش هذه الجنة بحذافيرها، فله زوجة تعشقه ويعشقها وهي فائقة الملاحة والجمال، وقد منحه الله بحبوحة من العيش تجعله يحقق ما يتمنى، وكان عجبه شديدا عندما يسمع أحدا يتكلم عن التعاسة والشقاء، لأنه لا يتصور وجودهما على هذه الأرض.

وأثناء اندماجه مع الطبيعة الفاتنة والصوت الساحر حانت منه التفاتة إلى زهرته المفضلة وسط أزهار حديقته التي منحها من عنايته

واهتمامه الكثير، ولشد ما أدهشه تسلل ثعبان لم يره من قبل بين الأزهار، ووصوله إلى قلب زهرته المفضلة وتكوع في قلبها.

نهض فزعا وتسلل بخفة ورشاقة غير معهودة، وأحضر مطرقة حديدية، ورجع على أطراف قدميه، والثعبان مستغرق في احتضان الزهرة اليانعة، وإذ بالمطرقة الحديدية الثقلية تهبط بقوة فائقة على رأسه فهشمته وهشمت معه الزهرة الفاتنة.

نسيت زوجته موبايلها في حجرة النوم، وحينما عاد لم يجدها، ولكنه وهو يدخل من باب بيتهم الكبير سمع رنة الموبايل وحينما دخل حجرة النوم كانت رنة الموبايل قد وصلت إلى نهايتها.

نظر الزوج فيه فوجد المكالمة من زوج أخته!. أخذه حب الاستطلاع فجعل يقلب في الموبايل فأخذته الدهشة حين وجد حجم المكالمات بين زوجته من ناحية وزوج أخته من ناحية أخرى مهولا. بدأ الفأر يلعب في عبه. ولم يدر لماذا أطلت صورة الصرصار أمام عينيه فجأة، وبدأت عملية الانتباه لهذه العلاقة تسيطر عليه سيطرة كبيرة.

وأخذ يبحث في ذاكرته عن لقاءات كثيرة كانت تجمعهما، وحاول أن يركز انتباهه على كيفية التعامل بين زوجته وزوج أخته. فبدا يتذكر خائنة الأعين بينهما، وبدأ يفتش عما تخفيه الصدور، ولكنه كان حذرا تماما، فلم يظهر عليه ما يثير ريبهما.

انتظر حتى جاءت مناسبة للذهاب إلى الإسكندرية فاصطحب زوجته

معه، وقد عرف جميع الأسرة بذهابه إلى الإسكندرية.

وفجأة جاءه تليفون فأوقع في نفس زوجته أنه عائد إلى القاهرة في أمر ضروري جدا على أن يعود في الغد. دعت له الزوجة بالتوفيق. وأظهرت لهفتها بسبب هذا الفراق الفجائي، ومنحته حضنا دافئا جدا وهو يسير من حجرة النوم إلى باب الشقة راحلا إلى القاهرة، ونظرت بعينيها الواسعتين العميقتين في عينيه وتمنت له السلامة من كل قلبها. وحينما غادر المنزل اتصلت على الفور بزوج أخته وأخبرته بنزول زوجها، وأنها ستقضي ليلتها بمفردها في المنزل. كان زوج الأخت خارج منزله فاتصل بزوجته يخبرها أنه سيبيت ليلته خارج البيت لأن هناك أمرا هاما يستوجب ذلك. وعلى الفور توجه إلى الإسكندرية.

كان هناك من يراقب مدخل المنزل من بعيد دون أن يشعر به أحد. وأثناء مراقبته لمنزله مرت صورة الصرصار أمام عينيه، فتجلد لمرآه القذر، وحينما رأى زوج أخته يدخل من الباب تأكدت ظنونه. ظل وقتا مناسبا ثم انسل إلى منزله وفتح الباب في هدوء وتوجه إلى حجرة نومه، فرأى زوجته وزوج أخته في وضع مخل جدا جدا جدا.

في الأتوبيس

الساعة الآن تدق الثالثة والنصف عصرا، ولابد من الإسراع إلى الأتوبيس حتى أجد مكانا في الكراسي الأمامية قبل أن يجلس عليه أحد. لقد انتهينا من عملنا وحان وقت الرجوع في أتوبيس العمل، وحينما صعدت سلم الأتوبيس وجدت ابتسامة صافية من صديقي الطيب فقد حجز لي بجانبه فارتاح قلبي لصحبته التي تجعل الطريق الطويل سهلا ميسورا، وذلك بما يندفع فيه من حكايا لا تنضب. إنه الآن في الخمسين من عمره وقد مر بتجارب مريرة في حياته، فأبوه طرده من البيت، وكان يقيم في الجامع، ومعه كتبه الجامعية يذاكر بالليل ويذهب إلى المدرسة، وكثيرا ما يتغيب عنها، كي يعمل في أعمال قاسية من أجل كسب قوت يومه، وظل هكذا أعواما كثيرة، حتى حصل على الليسانس وحصل أيضا على الماجستير والدكتوراه.

حين سلمت عليه واطمأن بنا المقام، واندفع الأتوبيس بنا نظرت إلى وجهه فوجدت وجهه واقعا تحت ثقل ضاغط تنوء به الجبال، قلت له: مالك؟

قال: لقد تذكرت الآن يوم حصولي على الدكتوراه، حينها جلست في الشرفة أتذكر أحداث حياتي، فقفزت إلى ذهني حادثة طرد أبي لي

ومقولته التي ما زالت تتردد بقوة في جنبات نفسي، وهي: لولاي لمت، حيث كان أبي متسلطا على زوجته الطيبة التي هي أمي، وعلى أولاده الذين هم إخوتي، دائما ما يضربنا جميعا لأتفه الأسباب، وكنت أنا الابن الأكبر كثيرا ما أتعرض لضرب مبرح لسبب أو لغير سبب، وهذا الضرب ترك ندوبا في نفسيتي مازالت حتى الآن وقد تجاوزت الخمسين من عمري بأعوام قليلة.

قلت له: وكيف كان ذلك؟

قال: كانت معه مسطرة خشبية متينة جدا، وحينما يعن له ضرب زوجته وأولاده حينما يكون مزاجه غير منحرف انحرافا تاما يطلب من الأم أن تفتح يديها فتفتح يديها في استسلام تام ويوجعها بضربات قوية متتابعة ثم يثني على أولاده وبناته جميعا فيأخذون نصيبهم من الضرب المتتابع غير منقوص.

أما إذا كان مزاجه منحرفا انحرافا تاما فإن هذه المسطرة لا تصلح أبدا وتكون هناك وسائل أخرى وأدوات أخرى أكثر تعذيبا وإيلاما.

ورغم هذا العنف الشديد فقد وصل الابن الأكبر الذي هو أنا إلى الجامعة، وعلى الرغم من تجاوزي العشرين من عمري في ذلك الوقت، وعلى الرغم من قوتي الظاهرة جدا وفتوة الشباب التي كنت أعيشها فإنه كان يطلب مني أن أفتح يدي ويضربني الضربات المتينة المتتابعة.

قلت له: وكيف توقف هذا الضرب المهزلة؟

قال: في كليتي كنت جالسا مع أحد أساتذتي، ورأى احمرار كفي، فسألني عن ذلك فقصصت عليه ما أتلقاه من ضرب على يديّ من أبي حتى هذه اللحظة.

قال لي أستاذي: إذا طلب منك أبوك أن تفتح يدك فلا تفتحها وكن حازما في ذلك.

في اليوم التالي طلب الأب من الأم وقد اصطف الأولاد جميعا أن تفتح يديها ففتحت باستسلام تام وتلقت نصيبها المعهود من الضرب كالعادة.

وحينما جاء دوري طلب مني أبي أن أفتح يدي بحزم واضح كي أتلقى نصيبي من الضربات المتينة المتتابعة. كان ذلك أمام الأسرة كلها، ولكن المفاجأة غير المتوقعة تماما أن قلت له بحزم أشد: لن أفتح يدي.

كانت هذه أول مرة أخرج فيها عن طوع أبي، وهنا عرف الأب أن عهد ضربي قد ولى إلى الأبد. فأخذني من قفاي بغضب شديد ونزل بي درجات السلم حتى وصل إلى بدروم المنزل الذي يملكه وكان مكونا من ثلاثة طوابق وبدروم، وفتح باب حجرة مغلقة، ثم أضاء النور وفتح جوالين مملوءين بزجاجات فارغة، وأخرج لي الزجاجات جميعها وقال لي: لقد احتفظت بهذه الزجاجات من أجل تلك اللحظة.

انظر هذه الزجاجات الكثيرة جدا كما ترى كلها كانت أدوية لك وحدك في فترة طفولتك، اشتريتها من حر مالي من أجلك. فاعلم أنه لولاي

لمت ، ثم سحبني من قفاي إلى باب المنزل وفتح البوابة الكبيرة ودفعني إلى الخارج حيث الشوارع المتلاطمة وقال لي: لا أرينك بعد اليوم.

كانت قطرتان ساخنتان من الدموع تنفلتان مني في هذا المساء، وأنا أتذكر في الشرفة هذه الحادثة المؤلمة، وهي حادثة طرد أبي لي من بيتنا الذي تربيت فيه، وعشت فيه طفولتي وصباي وشطرا من شبابي.

وأخيرا وصل بي المطاف لأعمل معكم هنا. ثم حانت مني التفاتة إلى وجهه فرأيت عليه ملامح الطيبة والعلم الذي يتفجر من بين جوانبه.

وقد تم الاتفاق معي على راتب ضعيف جدا بالقياس إلى شهادتي، ولكنني ـ كما ترى ـ مستعصم بالصبر، رغم ضيق العيش الذي ظل ملازما لي.

قلت له: وكيف تزوجت، وأنت فقير معدم؟

قال: ربك دائما واسع كريم، ولكنني مررت بظروف صعبة جدا في الزواج؟

قلت له: وكيف كان ذلك؟

قال: حين تزوجت حملت زوجتي في توءم، ولكن هذا التوءم توفاه الله بعد الولادة، وكانت زوجتي تعاملني معاملة قاسية، سليطة اللسان ولا تحترمني أبدا. ولكن شجاعتي الفائقة وتمرسي على الغلب جعلني أطلقها فأخذت ماورائي وما أمامي، فازددت معاناة على معاناتي.

وهنا قررت الذهاب إلى بلدتي في إحدى محافظات الدلتا من أجل البحث عن زوجة أخرى من أهل القرية.

على الفور وجدت مطلقة ومعها ابنها، تزوجتني وهي فرحة جدا لأنها ستتزوج رجلا يحمل درجة الدكتوراه، وفي نفس الوقت يعمل في وظيفة محترمة.

حينما عاشت معي وجدتني أعيش في معاناة شديدة، فالراتب لا يكفي وأنا سريع البادرة، وقد شعرت أنها لا تحبني، بل إنها نقلت كرهها لي إلى ابنها الطفل فكاد يقتلني.

قلت له وأنا أستجمع قواي لكي أستعصم بالكرسي الذي أجلس عليه، وذلك بسبب هزة مفاجأة للأتوبيس: وكيف كان ذلك؟

قال: قبل المغرب كنت واقفا في بلكونتي الصغيرة بالدور الرابع في إحدى شقق الإسكان الاجتماعي التي استأجرتها من صاحبها، كنت مستغرقا استغراقا تاما في تأمل الشارع الواسع يتلقى صدري أطيب هواء، وفجأة اندفع ابن زوجتي من أقصى الصالة، وجاء بسرعة فائقة وارتطم بي ارتطاما مروعا اهتز له قلبي اهتزازا شديدا وكدت أن أقع بجسمي الضخم من الدور الرابع، ولكن العناية الإلهية أنقذتني من هذا الوقوع، فنهضت ولديّ يقين تام بان هذا الارتطام مقصود من الصبي، وأنه أراد هلاكي. ووقع في نفسي أيضا أن هذه الزوجة خائنة فطلقتها واضطررت للاستعانة بعملي الذي دفع عني مؤخر الصداق، لأني كنت على وشك دخول السجن.

قلت: يالها من معاناة صعبة يا صديقي!

قال: لقد عانيت معاناة أصعب منها بعد ذلك.

قلت له وقد انحرف بنا الأتوبيس إلى طريق آخر حتى تقصر المسافة: وكيف كان ذلك؟

قال: بعدها بفترة بسيطة جدا تزوجت واحدة تصغرني بأكثر من خمسة وعشرين عاما. لكم كانت صعبة المراس معي، لا تعطيني نفسها بسهولة، في أول كل شهر تأتي إلى شقتي تحصل على المال مني ثم تغادرني إلى بيت أسرتها بقية الشهر، وأنا أقوم بمهام البيت كلها وكأنني غير متزوج.

وإذا تصادف وأقامت أياما معي فإنها تصرخ في وجهي لأتفه الأسباب وربما ضربتني.

أبديت له تعجبي الواضح، وقلت له: أين شجاعتك الفائقة وقدرتك على اتخاذ قرار فوري بالانفصال؟ لقد فعلت ذلك من قبل مرتين بسهولة.

قال باستسلام ظاهر: لكن شجاعتي هذه المرة خانتني خيانة كبيرة فأنا لا أستطيع أن أرد عليها الإهانة بإهانة وإذا ضربتني لا أستطيع أن أضربها. فقد كان أخوها بلطجيا عتيدا في الإجرام مما جعل قلبي يصاب بالرعب الشديد منه ويفقد بالتالي كل شجاعته.

كانت بقعة النور التي منحت لحياتي المعنى هو إنجابي منها طفلا صغيرا جعلني وأنا في الخمسين من عمري أعرف معنى الفرح الحقيقي في حياتي التعسة.

وهنا رأيت وجهه يزداد كآبة على كآبة وقد بدا لي أنه يحمل ثقلا ضاغطا، فقلت له: مالك؟

فقال: اعلم أن المدام تتفنن في مضايقتي وتعاستي.

قلت له: وكيف كان ذلك ؟

قال: لا تحمل همي أبدا، وهي مبذرة شديدة التبذير، بالأمس عزمت أباها على الغداء فأتيت بفرخة. ولكنها لم تقتنع بالفرخة فقط، ونزلت واشترت بطيخة.

بالذمة دا يرضي ربنا. فرخة وبطيخة. مش حرام.

وهنا سمعت من في الأتوبيس يغرقون في ضحك متصل.

وهنا أمسك صاحبي عن الكلام والبوح، فنظرت إلى وجهه الطيب البرئ ورأيت بوضوح حجم معاناته متجسما أمامي، فتذكرت صورته في ذلك اليوم الذي هاتفه زميله في العمل وأخبره بأن الراتب الشهري نزل، شكره شكرا عميقا، فهو يعيش عيشة الكفاف رغم كونه يعمل في وظيفة مرموقة جدا، ولكن راتبه لا يكاد يكفيه، فهو قد اقترض من البنك مبلغا كبيرا دفعه في شقته التي اشتراها في الإسكان الاجتماعي، والبنك يخصم من راتبه ألفي جنيه شهريا مباشرة، ولكن البنك يخصم في اليوم الأخير من الشهر، والجهة التي يعمل بها تضع المرتبات دائما في اليوم الأخير في الشهر ومن هنا فإن البنك يخصم ألفي جنيه مباشرة يوم نزول الراتب فيذهب صاحبنا ليجد ثلاثة آلاف جنيه بقية راتبه فيعيش بهما.

ورغم أنه يعيش هو وزوجته الثالثة وطفله الرضيع فقط فإن الباقي من راتبه لا يكاد يكفيه.

وكثيرا ما كانت تدور بينه وزوجه مشادات وخناقات كثيرة بسبب ضيق ذات اليد، وكثيرا ما فكر في تطليقها مثلما فعل مع زوجتين قبلها، ولكن عجزه تام هذه المرة، فزوجته حاضنة وستأخذ منه الشقة، وأخوها بلطجي فكان دائما يؤثر العافية ويتحمل سلاطة لسانها وعصيانها التام له وفي بعض الأحيان تطاولها باليد عليه.

ذهب إلى ماكينة لسحب راتبه، ولكنه فوجئ بزيادة قدرها ألفان من الجنيهات، ففرح فرحا زائدا، وكانت ماكينة السحب بجوار مسجد الحصري فتوجه إليه، وهو يبكي شكرا لله تعالى.

كانت دموع الفرح تتساقط من عينيه، في حين كانت يده تلمس المال في جيبه المتضخم وقلبه في غاية السعادة، وكثيرا ما كان ينظر إلى السماء مرددا بصوت مسموع وقد اغرورقت عيناه بالدموع: ألف حمد وألف شكر لك يارب.

حين دخل المسجد خلع نعليه ثم استغرق في سجدة طويلة متصلة شاكرة لله تعالى على نعمه.

كان استغراقه في التسبيح والحمد وهو يتوضأ ويسبغ الوضوء لافتا لمن حوله من رواد المسجد المبارك.

لقد أتم صلاة الشكر وأحسن قيامها وركوعها وابتهل كثيرا إلى الله

تعالى. حين خرج من المسجد هاتف زوجته وأخبرها بأنه عثر على خمسمائة جنيه في طريقه، وطلب منها أن تخبره بأي شئ تريده حتى يأتي به.

حمل لحوما وفراخا وأسماكا وحلوى وعاد إلى البيت مسرعا فرحا، وكانت فرحة زوجته غامرة بهذا الخير العميم الذي لم تتعود عليه معه منذ زواجهما.

بعد ثلاثة أيام جاءه تليفون من البنك الأهلي يخبره بأنه لم يترك لهم القسط المستحق لهم وهو ألفان من الجنيهات في راتبه، وأي تأخير سيكون بفائدة.

أسقط في يده وقال لهم ألم تأخذوا الألفين حين نزل الراتب قالوا له إنهم يأخذون الألفين حين ينزل الراتب، وراتبك ينزل يوم ٣٠ كل شهر.

ضرب جبهته بيده ضربة قوية، صائحا "أخ"، لقد نزل الراتب قبل ميعاده بثلاثة أيام!

كان شهرا عسيرا حقا فقد أنفق ببذخ غير معتاد، وعليه أن يواجه التقشف الحق نتيجة لهذا البذخ.

فجأة تدخل سائق الأتوبيس، وقال له أنت تتقاضى اثنى عشر ألفا راتبا، فثار في نفسه ثورة عارمة، وانتفخت أوداجه، واحمر وجهه، وقال لي: انظر للحسد الذي ألقاه من كل الناس، وأنا لا أجد ما آكله.

قلت له: ماذا تفعل لو أصبح راتبك اثنى عشر ألفا؟

لمعت عيناه ببريق الفرح الطفولي، وقفزت أمواج السعادة متتابعة من

قلبه الفياض، وابتسم ابتسامة الرضا التام، ثم قال بحسم وفرح، وكأنه كسر قيدا حديديا لا سبيل لكسره، وقال:

أطلق أم ابني فورا. أترك لها كل شئ وأرحل بعيدا عنها.

قلت: إلى هذه الدرجة أنت تود الخلاص منها؟

قال بصوت يسمعه جميع من بالحافلة: إنها تهينني.

يقول ابني لي: ياراجل يا عيّل!

ويقول أيضا: أصلك راجل مقرف.

ابني عنده ثلاثة أعوام. هل تعتقد أن هذا كلامه؟!

وفي هذه اللحظة شعرت بهزة مفاجئة من الأتوبيس فاستعصمت بمقعدي، وحانت مني التفاتة عبر زجاجه الأمامي إلى سرب من الحمام الأبيض يمعن في التحليق عبر الأفق الواسع.

نظرت إلى وجهه الطيب فرأيت اكتئابه حادا، قلت له: لماذا حزنت عندما ذكرت طفلك؟

قال: لقد تذكرت حين هتف طفلي الصغير فجأة: جدو حمدي مات، وقعت هذه الكلمة عليّ وقع الصاعقة، ووقع في نفسي أن طفلي ينطق بصوت الغيب، وربما يكون أبي قد توفي فعلا.

وفي لحظة خاطفة مرت في ذهني صورة أبي عبر السنوات الطويلة والعلاقة القلقة جدا معه. حين نظرت في وجه طفلي البرئ تذكرت على

الفور صورة أبي الضخم وهو في عنفوانه ذلك حينما كنت في عمر ابني طلب مني هذا الأب الضخم حفظ جدول سبعة لأنه الآن سيأخذ دشا، وبعد أن ينتهي منه سيسّمعه لي.

حين خرج الأب ذو الصحة والفتوة التي تطفر من وجهه وجدني في السرير وقد وصلت حرارتي إلى أربعين درجة، حين لمس جبهتي انتبهت وقلت بأعلى صوتي سبعة في ثمانية بستة وخمسين، قال لي أبي: اهدأ يا بني، كان وجه الأب يكبر فجأة في عيني ويصغر فجأة وهناك وش كبير في رأسي، ولكنني ظللت أكرر سبعة في ثمانية بستة وخمسين. كان أبي القاسي رحيما بي في هذا اليوم، فلم يطلب مني تسميع جدول سبعة وتركني كي أرتاح.

إنه الآن يتمتم في سره ويقول وكأن والده فارق الحياة: رحمك الله يا أبي.

فقد بدا أنه أحس بحزن شديد من كلمة ابنه التي قد تكون حقيقة، وتصور نعش أبيه وهو يخرج به من بيته إلى بعيد.

قلت له: وماذا فعلت بعد ذلك؟

قال: على الفور اتصلت بأبي على الهاتف المحمول، ولكن لم أتلق ردا، فأعدت الاتصال ولكن دون جدوى.

وهنا بدا ثقل الكابوس يتزايد على صدري، فاتصلت بزوجة أبي التى ترد عليّ دائما حينما أتصل بها، ولكني لم أتلق ردا أيضا، تضاعف ثقل

كابوس رحيل الوالد وهنا اتصلت بإحدى أخواتي وقصصت عليها الخبر كله وطلبت منها أن تتصل بأبيها لتتحقق منه، وبعد فترة بسيطة اتصلت بأختي لأعلم منها ما حدث فوجدتها منخرطة في بكاء متصل، وقالت لي لقد رد عليّ أبوك ونهرني بشدة لأنني أتصل به واتهمني بأنني أريد حاجة منه.

وهنا ندت عني ضحكات بصوت مرتفع ومالبثت أن تجاوبت ضحكاته معي، وقد شاركنا من كانوا قريبين منا في المقاعد الأمامية، وسرت عدوى الضحك إلى الأتوبيس كله.

وبعد أن انتهينا من ضحكنا لمحت على وجهه رضا وسلاما يطل من قلبه. وإذا به من غير أن أسأله يقول: إذا احتجت شيئا فاسأل الله، لقد أعطاني الله طاجن لحمة.

قلت: وكيف كان ذلك؟

قال: كانت زوجتي وطفلي في بيت أسرتها تأكل لحوما، وأنا وحدي في المنزل لا أجد ما آكله، قلت يارب أنت تعلم أني جائع ونفسي آكل لحمة.

جاءت زوجتي وابني وأنا جائع.

أختي التي تسكن في الشقة المقابلة لي دعتني فذهبت أنا وزوجتي وطفلي، وقدمت لي بعض الفطائر من الفرن أخذتها لأني جائع جدا ولكني أخذتها وأنا ممتعض، وقلت في نفسي: ألا توجد لحمة.

وفجأة جاءت أختي الثانية حبيبة من شقتها البعيدة ودخلت مطبخ أختي، ودعيت إلى المطبخ وإذا بأختي حبيبة تعطيني طاجن لحمة. به على الأقل ثلاثة أربا ع الكيلو لحمة هبر.

ناديت على طفلي فجاء إلى المطبخ، ووضعت الطاجن بيني وبينه وقلت: كل يا حبيبي وأكلت حتى شبعت تماما، ولم يسبق لي أن شبعت إلى هذا الحد من اللحمة.

قلت: لأختي حبيبة ما الذي جعلك تصنعين ذلك ؟

قالت: أنت.

قلت: كيف كان ذلك؟

قالت: جئتني في الحلم تطلب طاجن لحمة، فأتيتك بطاجن اللحمة.

وهنا اغرورقت عيناه بالدموع شكرا لله، في حين كان أتوبيس الجامعة ينهب بنا الأرض نهبا.

الخطوبة

١ ـ الطرقة الواسعة في المستشفى الحكومي بمدينة بورسعيد تبدو شديدة الطول والاتساع وهو يزرعها جيئة وذهابا وقد خيم الحزن الرهيب على محياه، وبدا كاهله وهو يئن أنينا مفجوعا من ضخامة ما يحمله. وكان ما يحمله رهيبا حقا، فخطيبته ذات الحسن الفائق والتي تصغره بعشرة أعوام كاملة اعترفت له بأنها تحب شخصا غيره حبا لا يعرفه أمثاله، كانت تقول له ذلك وقد لمعت عيناها وبدا له منقار طائر الحب وهو ناشب حقا في قلبها بلا رحمة، وبدا استسلامها التام لهذا الحب الذي يعصف بقلبها، إنه لا يستطيع أبدا نسيان وجهها وهي تعترف له على كنبة الصالة في شقتها الصغيرة. وحينما سألها: ولماذا وافقتِ على خطبتي لكِ وأنتِ تحبين غيري؟ قالت له ببراءة مدهشة: لأن أبي قد أعطى كلمة لأبيك حينما فاتحه في خطبتنا وعلى الرغم من أنه لم يأخذ رأيي فقد رفضت أن أجعله "عيّل". كان تبريرها هو الضغط أكثر على الخنجر الذي أنشبته في ضلوعه ببراءتها المدهشة.

إنه الآن يزرع طرقة المستشفى الواسعة جيئة وذهابا، ويدخل في نهاية كل مرة على والدها الذي يحتضر في إحدى الغرف، وقد بدأ يأخذ أنفاسه بصعوبة بالغة وبدا صدره يعلو ويهبط وهو طريح الفراش.

وقف ينظر في وجهه هو وبعض أهله الأقربين، وإذا بعينيه تدوران على كل وجه واقف أمامه، وحينما وقعت عيناه على صاحبنا أطال

التحديق إليه. ولم ينطق لسانه بكلمة واحدة، ولكن وجهه نطق بالنبوءة القاسية فقد بدت علامات الانزعاج الشديد على وجهه فجأة. وهنا رأى صاحبنا في وجهه صورته وخطيبته وهما يواجهان أعنف المواقف التي تؤدي إلى فسخ الخطبة، ثم انقلب وجهه إلى صفحة أخرى في كتاب الغيب، وإذا بحالة التشنج تظهر أيضا على أعنف مايكون، وقد رأى صاحبنا خطيبته في هذه الصفحة وهي تتلقى ضربات القدر بلا رحمة، ثم انتقل وجهه إلى صفحة ثالثة من صفحات كتاب الغيب رأى صاحبنا في هذه الصفحة أيضا وجه خطيبته البريئة وهي تتلقى معاول القدر الضاربة. ثم انتقل الوجه الواهن المتشنج إلى صفحة رابعة من كتاب الغيب وإذا بعلامات الارتياح والرضا التام تظهر على هذا الوجه.

بدا لصاحبنا أن هناك فترات حرجة جدا ستلقاها خطيبته الفاتنة البريئة ولكنها ستجد قرة العين في نهاية طريق مملوء بالظلمات والفخاخ.

في صباح اليوم التالي استيقظ صاحبنا على صرخة حرّى تشق جدران الشقة الصغيرة في مدينة بورسعيد عرف فيها صوت عمته التي هي في الوقت نفسه أم خطيبته الفاتنة، ثم توالت الصرخات البائسة والوقوع على أرضية الصالة الصغيرة. لقد مات والد خطيبته الطيب في المستشفى الحكومي.

في السيارة البيجو التي انطلقت خلف عربة الجثمان إلى إحدى قرى محافظة الشرقية لكي يتم دفنه هناك في مسقط رأسه كان صاحبنا ينظر عبر النافذة إلى الحقول المترامية على جانبي الطريق وقد بدا استغراقه التام في بداية خطوبته لابنة عمته الفاتنة.

لقد كان من أسرة متوسطة يزرع والده خمسة أفدنة تنفق على أسرته الكبيرة، وكان متفوقا في دراسته ملتزما بتعاليم الدين والعرف الاجتماعي إلى حد كبير، لم يحصل على تقدير مرتفع في السنة النهائية من كليته على عكس المتوقع، فعمل مدرسا ولكنه بذل مجهودا كبيرا جدا في عمله وبدت أمارت التحسن المادي تبدو عليه، ولكنه لم يبخل على أسرته بماله فكان سخيا معهم إلى درجة ملحوظة.

أراد أن يتزوج فوقع اختياره على مراهقة آية في الجمال والأنوثة الطاغية. كانت فتاته في الصف الثاني الثانوي، وكانت هناك صلة قرابة بينهما. وكانت أسرتها التي تقطن في مدينة بورسعيد في زيارة صيفية للأقارب في قريته.

وكانت صلة القرابة كثيرا ما تمنحه فرصة للقاء مع هذه الآية الفاتنة من الجمال والأنوثة. أسرّ لوالدته التي يحبها كثيرا وتحبه حبا كبيرا برغبته في الارتباط بهذه الفاتنة البورسعيدية وعلى الفور أبلغت والده الذي لم يكذّب خبرا وكلم والد الفتاة في الارتباط فوافق على الفور دون أن يسأل ابنته وتمت قراءة الفاتحة وسط فرحة عارمة من الجميع.

كان صاحبنا في القاهرة في عمله في حين كانت فتاته قد سافرت مع إخوتها إلى بورسعيد، ولم يعلما بالفاتحة التي تمت قراءتها. علم صاحبنا من أخيه عن طريق التليفون بما تم ففرح فرحا كبيرا بفتاته التي ملكت عليه فؤاده في لمحة خاطفة.

كما علم أن أهلها قد سافروا جميعا إلى بورسعيد. على الفور ذهب

إلى هذه المدينة الساحلية للقاء حبيبته الفاتنة وصل في المساء وهو يحمل أصناف الهدايا فقوبل بترحاب كبير.

بعد الانتهاء من مراسم الاحتفاء والترحاب كان في البلكونة مع فاتنته وسألها عن رأيها فيم تم فقالت: لقد فوجئت به. لماذا لم تكلمني أولا؟ فقال: لما أردت دخول البيت من بابه. فنظرت إلى كتلة من السحاب وهي تسير الهوينى وتحجب نور القمر.

لقد أحس بأنها تحمل له مفاجأة مزلزلة من نظرتها تلك. فارتقب، لكنها لم تتكلم. إذ دخلت أختها، فسكت.

اقترح أن يذهب إلى البحر لأنه يعشقه ولم يكد يراه في حياته غير مرة واحدة خاطفة، فوافقت على الذهاب معه على أن تصحبهما أختها التي تكبرها بثلاثة أعوام كاملة. سار بجانبها في حين كانت الأخت تتقدمهما وهي تقودهما عبر طرقات ملتوية إلى البحر الخالد، ولكن ما أشد انقباض قلبه حينما وجد مساحة كبيرة جدا وقد ملأتها القبور الصامتة وعليهم أن يمروا عبرها في هذا الليل إلى البحر الواسع.

حين وصلوا إلى شاطئ البحر الواسع جلس بجانب فاتنته على الشاطئ في حين ذهبت الأخت لشراء بعض الأشياء لهما.

سألها عن رأيها فيما تم فقالت بصراحة آسرة: أريد أن أكمل تعليمي ولا أريد الارتباط الآن. شكرها رغم تمزق قلبه تمزقا مدويا ووعدها بألا يتم هذا الموضوع.

ولكنها قالت: وماذا ستقول للناس؟ قال: ما تحبين أن أقوله سأقوله. قالت: لا أريد أن أظهر بأنني السبب فيظهر أبي بصورة غير حسنة بعد قراءته للفاتحة وفسخي لهذه الفاتحة. فقال لها: اطمئني سأبيت الليلة ولن أقول شيئا وفي الصباح الباكر أذهب إلى القاهرة ولن أعود.

وإذا سألني أحد عن الخطبة سأقول مفيش نصيب. وسأظهر أنا بأنني من فسخ الخطبة كما تريدين. تم الاتفاق على ذلك ثم عادوا جميعا إلى البيت.

في الصباح الباكر كان مستغرقا في النوم وقد تركت الأحزان بصمتها التي لا تخطئ على صدره، ولكنه فوجئ بفاتنته الخالدة توقظه من النوم قبل ذهابها إلى المدرسة، وتخبره بموافقتها على الاستمرار في الخطبة وإتمام الزواج. لقد كانت في زيها المدرسي وقد ربطت شعرها الفاحم بتوكة ذهبية فبدا وجهها قمرا ساحرا يظهر في الصباح وكانت ساقاها تطلان من الجيبة المدرسية ذات اللون الرمادي.

على الفور أمسك يديها بحنان بالغ ثم طلب منها الإتيان بالجاكت الجلدي المعلق على الباب وأخرج منه مالا مرضيا ومنحه لها فقالت له: لم تعطيني هذا المال؟ فقال لها: لأنك أصبحتِ خطيبتي.

انتظرها حتى عادت من المدرسة وسألها لماذا غيرتِ رأيك؟ فقالت لقد استشرت أمي وأختي فأقنعتاني بالاستمرار في الخطبة وعدم فسخها.

في طريق عودته من بورسعيد إلى القاهرة كانت روحه تكاد تلمس

السماء من فرحته الزائدة بأن تكون هذه الحسناء فائقة الحسن خطيبته وزوجته المستقبلية.

كانت فاتنته تعيش فرحة طفولية بهذه الخطوبة وكانت تحلم بفستان الشبكة والأساور التي ستلبسها ودبلة الخطوبة والحشود التي تأتي لمشاهدتها في الكوشة بجانب خطيبها، وكانت تتعجل هذه الفرحة دائما.

لقد كانت ليلة مشهودة حقا فقد كانت فاتنته في فستانها ساحرة بكل المقاييس وقد بدا طائر السعادة الملائكي مرفرفا فوق الخطيبين السعيدين.

ما أسرع انتهاء لحظات السعادة، إذ بعد أسبوع واحد فقط من هذه الخطوبة التي تركت صداها في النفوس والقلوب كان صاحبنا يجلس مع خطيبته في الصالة، وإذا بها تعترف له اعترافا خطيرا بانها تحب غيره حبا لا يعرف الحدود وأنها وافقت على خطوبته مجبرة حتى لا تحرج والدها أمام الرجال بعد أن أعطى كلمة أمام الناس.

فجأة . وهو في غمرة انغماسه في هذه الذكريات . ارتجت السيارة البيجو التي تقله فقد مرت على مطب اصطناعي فجأة فانتبه من عالمه، وبعد طريق طويل وأشجار طائرة وحقول تجري إلى الخلف بسرعة مذهلة وحيوانات الفلاحين وأكواخهم وبعض المدن وصل إلى القرية التي ستواري جثمان والد خطيبته الطيب.

كانت المقابر على دورين، وقد رأى الجثمان يوضع في المقبرة العلوية،

وقف صاحبنا يحدق في المصير الذي ابتلع الأجيال المتواصلة من البشر وسيبتلع الأجيال تلو الأجيال وهو يزيل بيديه بعض غبار المقابر من على وجهه المحتقن، وقد أطل هدهد فوق غصن جميزة عجوز بجانب المقبرة، ثم التفت بعينيه فوجد جاموسة معصوبة العينين وهي تدور بتواتر في الطمبوشة وقد بدا حزن أشجار الصفصاف على جانبي الترعة الممتدة.

حانت منه التفاتة إلى مجموعة النساء اللائي يقفن على مقربة منه في انتظار الانتهاء من مراسم الدفن فرأى خطيبته الفاتنة في ثوبها الأسود وقد بدا وجهها آية فائقة من آيات الجمال رغم حالة الحزن التام على فراق والد حبيب.

مطرقة هائلة ضربت قلبه فجأة فهذا الجمال الفائق الذي يملكه بدبلة الخطوبة أمام الناس هو متأكد تماما من أنه لا يملك منه ذرة واحدة، وإنما هناك في مدينة بورسعيد الساحلية فتى يصغره كثيرا جدا ربما بعشرة أعوام هو الذي يملكه حقيقة.

في طريق العودة سار على السكة الترابية عائدا إلى منازل أقرباء والد خطيبته، كان ينظر إلى سحابة تتهادى في الأفق الممتد، وتذكر تلك السحابة في مدينة بورسعيد حينما كان ينظر إليها، وهو متجه إلى البحر وقت انصراف الطالبات من المدرسة فشاهد خطيبته وهي في زيها المدرسي وقد عقصت شعرها الأسود الفاحم بتوكة ذهبية حاملة حقيبتها المدرسية بجانب زميلة لها لا يلفت جمالها الأبصار، وكان هناك مجموعة كبيرة من شباب بورسعيد ولكن لفت نظره فتى ربما يكبرها بعامين وهو يتتبعها

بخطواته السريعة وعينيه الرامقتين، نادى عليها باسمها لكنه سمع صوتا لا يحمل أي كلمة واضحة ولم ترد عليه وانطلقت في سيرها وكأنها لا تعرفه.

انطلق في سيره وقد استقر في خاطره أن هذا الفتى هو حبيبها، ولكنه عاد يحدث نفسه: هل هذه الطالبة هي خطيبته فعلا؟ إن لم تكن تحبه فإنها ابنة عمته في النهاية ويجب أن ترد على ندائه.

على كل حال فقد واصل سيره وهو مثقل بخيبة أمل كبيرة حتى وصل إلى البحر فوقف على صخرة ناتئة وهو يتلقى رذاذ الماء على وجهه وجسده، ويشاهد ويسمع ارتطام الموج موجة بعد موجة بصخور الشاطئ، وقد رأى نورسة منفردة تنقر البحر فأدام النظر إليها، ثم عاد وقد اشترى حذاء جديدا فخما بمبلغ كبير.

كانت أخت خطيبته الكبرى تستعد لحفل زفافها، وقد اجتمع المدعوون في شقة خطيبته والشقة المغلقة التي فوقها، حيث استأذنت عمته صاحبة الشقة التي فوقها في مفتاحها حتى تستقبل ضيوفها فيها.

كان صاحبنا في الشقة السفلى مع عمه وقد ترك خطيبته ثلاث ساعات متواصلة دون أن يحاول لقاءها أو الكلام معها. وفجأة سمع صوتها ينادي عليه فخرج على سلم البيت يحدثها، وكان أول ما سألها لماذا لم تردي عليّ حينما ناديت عليك اليوم في الشارع؟، فأجابت ببراءتها المعهودة: لقد ناديتني باسمي وهناك شبان كثيرون كانوا واقفين ولو أجبتك لعرفوا اسمي وظلوا ينادون عليّ كلما رأوني ذاهبة للمدرسة أو عائدة منها.

لقد تأكد أنها كانت هي من رآها اليوم. لم يقتنع طبعا بإجابتها وظلت صورة ذلك الفتى الذي يتتبعها راسخة في ذهنه لا تكاد تتحرك.

فجأة . وهو في غمرة انغماسه في هذه الذكريات . وجد أيادي خشنة تمتد لتسلم عليه كانت هذه بعض أيادي الفلاحين الذين يتلقون العزاء في قريبهم. انتهت مراسم الدفن والعزاء، وقد استقر في ذهن صاحبنا أن فسخ هذه الخطوبة سوف يحدث لا محالة، فانطوى قلبه على أتعس وأشرس الجراح.

حين عاد من القاهرة مساء بعد غياب إلى قريته الصغيرة فوجد ترحيبا زائدا من أسرته ووجد أمه تحتضنه وتقول له ولا يهمك، فاستغرب ماذا حدث؟ فأخبرته أن شبكته جاءت من بورسعيد. فقد فسخت خطيبته الخطبة من طرفها وأرسلت له شبكته. كانت أمه تعرف مدى حبه الفائق لابنة عمته فائقة الحسن. وتخاف عليه من صدمة نفسية مروعة تزلزل كيانه كله، ولكنها فوجئت به متماسكا فحمدت ربها.

انتشر خبر فسخ الخطوبة انتشارا سريعا في قريته كعادة مثل هذه الأخبار. ولكن عمه جاءه وأخبره بأنهم نادمون على فسخ الخطوبة ويريدون الرجوع إلى الخطبة مرة ثانية، وافق سعيدا ولكنه اشترط شرطا صارما وهو: من جاء بالشبكة من بورسعيد يأتي مرة أخرى لأخذها.

وافقوا على الفور وكان يوما مشهودا حينما جاء أخوها وابن عمه ليأخذا الشبكة مرة ثانية، وقد بدا الارتياح على وجه صاحبنا وكرامته عادت إليه.

أيتها السحب الراكضة في هذا الفضاء العريض كم أحبك! فحبيبتي تحبني عادت لي مرة ثانية وأخذت الشبكة.

لملامحك أيتها السحب في بورسعيد مذاق خاص، ولقطرات مياهك العذبة وهي تتساقط على رأسي في شوارع هذه المدينة الصامدة فعل السحر في النفوس. إن مياهك تغسل نفسي وتزيل صورة الفتى العاشق لفاتنتي من رأسي.

٢ - آه يا قلبي الكسير هل حقا سأتزوج خطيبي هذا، وأترك حبيبي إلى الأبد؟، هل سأغادر بورسعيد مدينتي الخالدة وأذهب لأكمل عمري في القاهرة التي لا أعرفها ولا أعرف فيها أحدا أبدا؟.

هل أترك مطر بورسعيد وهواءها وناسي وعائلتي وحبيبي كي أعيش مع ابن عمتي الذي أصبحت لا أطيقه أصلا؟!

سامحك الله يا أبي لماذا فعلت بي ذلك. حبيبي لا تتركني رغم خطوبتي فأنا لا أستطيع الحياة بدونك. لا تتركني أحبك.

أرجوك لا تتركني، لقد تمت خطبتي في ظروف بعيدة عن إرادتي أرجوك لا تبعد عني أنا أحبك.

لن أتنازل عن حبي أبدا إنها مسألة وقت وأفسخ هذه الخطبة أنا لا أطيقه. تصرفاته لاتنزل لي من زور. طريقته في الكلام طريقته في الأكل طريقته في التقرب مني كل ذلك يصيبني بقشعريرة. لا أحبه لا أحبه.

٣ - آه يا قلبي السعيد حبيبتي عادت لي لقد أرسلت أخاها وابن

عمها كي يأخذا شبكتي لها مرة ثانية لم تستطع فراقي أحبك يا حبيبتي نظراتك تسريحة شعرك الأسود الفاحم، لمسة يدك وهي تسلم عليّ كل شئ يتعلق بكِ يا حبيبتي يفتنني. آه أحبك.

طلب من حبيبته الذهاب إلى البحر سويا، وافقت على الفور. وضع يده في يدها وظلا سائرين حتى وصلا إلى الشاطئ واستقبلا هواء الشاطئ وأمواجه بسعادة بالغة.

وعند عودته وهوسعيد جدا إلى بيت عمته قالت أمام الجميع: كل من رآني عاكسني وهو لم يدر بشئ.

كانت كلمتها طعنة نافذة في القلب، أطارت طيور السعادة إلى الأبد. وتم فسخ الخطبة.

٤. عاد صاحبنا من بورسعيد حاملا شبكته الحائرة، وعندما أخبر أهله بما حدث، أخذ أبوه شبكته منه وباعها.

في الميكروباص

حين حصل على مقعد بجانب النافذة في الميكروباص أطلق لسيل التداعيات العنان، وكانت التداعيات التي تأتيه ثقيلة الوطأة جدا على صدره، فقد استيقظ اليوم من النوم وهو يحمل أوزارا محتقنة على وجهه تكشف عما يموج به قلبه من احتقان بالغ منذ ليلة أمس التي تمثل صورة متكررة من أفعال الزوجة معه.

فزوجته شديدة العصبية بصورة مخيفة جدا، وكلما استبد به النوم بعد يوم حافل بالعمل الشاق يصحو من أحلى نومة على صوتها المرتفع جدا، وهو لا يستطيع أن يكفكف من غلوائها، ولا أن يجعلها تهدّئ من صوتها المزعج، ولا يجد سبيلا أمامه غير الصبر والاحتمال الذي يبدو أنه فاق طاقته تماما في هذه الليلة.

إنه تزوجها منذ اثنين وعشرين عاما بعد قصة حب وخطوبة فاشلة ومدوية في الفشل فقد كان يعشق جارته فائقة الحسن وخطبها لمدة ثلاثة أعوام متصلة لاقى خلالها الأمرين من تصرفاتها، فقد كانت هذه الجارة تصغره بعشرة أعوام كاملة كانت في الستة عشر من عمرها وكان هو في الستة والعشرين من عمره، وانتهت هذه الخطوبة بالفشل الذريع، وخطب زوجته تلك متسرعا وتحت ردة فعل من الفشل الذي أصابه في خطوبته.

كانت زوجته تلك من قرية مجاورة لقريته ومن أسرة متيسرة ماديا ويزعمون أنها الغالية عندهم وسيجهزونها بالغالي والنفيس ولكنه فوجئ بأنهم شديدو البخل إلى درجة مخيفة جدا وشديدو الاستغلال فقد حملوه فوق طاقته أضعافا مضاعفة في حين لم يكلفوا أنفسهم شيئا.

وعند عقد القران فوجئ بأنه يجب أن يوقع على قائمة منقولات باهظة بصورة مخيفة ومؤخر زائد عن الحد فقد بدت هذه الزيجة تدبيسة محترمة. وتكشفت زوجته عن امرأة ذات عصبية زائدة، وكأنها نمرة شديدة الشراسة والعنف.

لم يسامحهم على هذه الأفعال وبدت هذه الزيجة من وجهة نظره واجبة التخلص منها. ولكن هيهات هيهات فأسرتها ينظرون إلى الطلاق على أنه إعدام كامل للزوجة، ومن هنا فقد بذلوا جهودا مضنية من أجل مصادرة حريته في الانفصال. عرفت زوجته عنه أنه غير مقبل عليها فتمسكت به بصورة جنونية ولم ترحمه في الوقت نفسه من ضغوطاتها الثقيلة، وإهاناتها المتكررة بقصد أو بدون قصد.

إنه الآن في الستينن من عمره يبدو أصغر من سنه وسيما مبتسما دائما يحقق نجاحات لا بأس بها وإن كانت لا ترضيه يعمل في وظيفة مرموقة، زوجته العصبية جدا تزعّق ع الفاضي والمليان.

جاء ابنه بكلبة غالية الثمن من صاحبه، فهو عاشق للحيوانات الأليفة، وكانت الأم شديدة الانزعاج من الكلاب، تركها في البلكونة وذهب إلى درسه الخصوصي فبالت الكلبة في البلكونة وحينما عاد الابن

وجهت إليه سيولا من الشتائم التي لا ترد، أخذ الابن هذه الكلبة وعاد بها إلى صاحبه.

على الفور نهضت الزوجة بتنظيف الشقة كلها وغسلها وفي أثناء ذلك ترفع عقيرتها بالصوت العالي جدا شاكية متوعدة بناتها الأربع على إهمالهن في العمل. وما تلبث إحدى هذه البنات أن ترد عليها بعصبية لا تقل عن عصبية الأم، والأم تبدو كأنها إعصار لا يهدأ في حين كانت قطرات الألم من هذا الصراخ الحاد الذي يسمعه الجيران كل يوم تتسرب في نفسية الأب الكظيم.

استيقظ صباحا من النوم وعليه أوزار من الاكتئاب الحاد بأثر من ليلة أمس، وقد اعتزم اعتزاما على الانفصال عن هذه الزوجة.

ذهب إلى عمله، راكبا مترو الأنفاق ثم نزل منه لكي يستقل ميكروباصا ينزل منه أمام هذا العمل.

كان جلوسه بجانب النافذة، وقد فتح نصف زجاجها وانطلق الميكروباص في شارع صلاح سالم شديد الاتساع والأناقة وهو ينظر من النافذة ملقيا النظر على الأشجار على جانبي الطريق وعلى العمارات التي تكشف عن الطبقة البرجوازية المصرية.

بدا في حالة ذهول تام وهو يفكر في هذا الوضع الغريب الذي يعيشه، وبدا في إقامة التوازنات ويفكر ماذا لو انفصل عن زوجته كيف يعيش الأولاد؟ وأين؟ هل سيعيشون مع الأم أم سيعيشون مع الأب؟

فكر في الاتصال بصديقه المخضرم ذي الثمانين ربيعا، والذي عاش معظم حياته في إحدى الدول الأوروبية، وتزوج في أوروبا أكثر من واحدة وأنجب بنتا وولدا من زوجتين مختلفتين.

ولكنه قرر أنه حينما ينزل من الميكروباص سيتصل به، ولكن دق جرس هاتفه المحمول فكان هذا الصديق المخضرم يطلبه. سأله عن حاله، فال له: الحمد لله.

وكان صديقه هذا يطمع في الحصول على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية لهذا العام. سأله عن الأخبار المتعلقة بها فقال له: اليوم السابع يقول قريبا جدا.

قال لصديقه المخضرم: كنت عايز آخد رأيك في موضوع، ينفع الآن؟ أم في وقت آخر؟

ـ اتفضل

ـ الآن؟

ـ نعم

ـ أنا تعبت جدا

ـ مم تعبت ؟

ـ من البيت، أصبحت تعيسا جدا، المدام عصبية زيادة عن اللزوم، وذهبت طاقتي في التحمل، زهقت. أمس كنت نائما وإذ بصوتها الزاعق

يوقظني من أحلى نومة، وهذا يحدث كثيرا جدا، كلما نمت أيقظني صوتها الزاعق.

. هذا لا يصلح أبدا، لابد أن تجد حلا، لابد أن تنفصل تماما عنها، لأن شكواك منها متكررة، وهذا نتيجة اختيارك ولابد أن تصلح غلطتك، لابد.

. وماذا أفعل بالأولاد؟

خيرهم، إما أن يعيشوا معك وإما أن يعيشوا معها.

. تمام.

. لازم تصلح غلطتك، الزواج هنا صعب جدا، اثنان لا يعرفان بعضهما وفجأة يتزوجان!.

لابد من أن يعيشا معيشة كاملة مع بعضهما قبل الزواج بفترة طويلة وبعد ذلك يقررون تكملة الحياة المشتركة أم لا، هذا هو المفهوم الحقيقي للزواج.

. لم أكن أعلم أنها عصبية إلى هذا الحد، وفوجئت بعد الزواج بهذه الحدة وهذه العصبية.

. هذا طبيعي، لأنكما لم تعيشا مع بعضكما معيشة كاملة قبل الزواج. واحمد ربنا على أن الإسلام فيه طلاق، المسيحية لا تعترف بالطلاق وهذه مشكلة حقيقية. لقد حدث معي ما حدث معك تماما، تزوجت في أوروبا واحدة عصبية جدا وأنجبت منها بنتا، دمرت البنت جدا بعصبيتها الزائدة،

وأمس كانت ابنتي في حالة هياج تام، وهذا نتيجة الحالة النفسية المهتزة لأمها. وتزوجت للمرة الثانية فكانت هذه الزوجة الثانية عصبية جدا أيضا، وأنجبت منها ولدا تم تدميره تماما بعصبيتها الزائدة مثل ابنتي الأولى. زوجتك ستدمرك وستدمر أولادك أيضا، لابد من الانفصال التام.

. تمام، بعد الامتحانات.

. لابد أن تذهب إلى محكمة الأسرة وتعرفهم حالتها، لكي يحكموا بأن ينضم الأولاد لك، بعد ذلك تبحث عن واحدة هادئة الطباع، لكن لابد من معاشرتها معاشرة كاملة قبل الزواج الرسمي، حتى يقوم البيت على أساس متين.

. مجتمعنا يرفض ذلك، لأننا لسنا في أوروبا.

. إذن تزوجها زواجا عرفيا أولا.

. شكرا جزيلا.

. تمنياتي لك بكل خير.

أحد الراكبين ينادي على السائق بصوت مرتفع ومتهم في الوقت نفسه يطالبه ببقية الخمسة جنيهات التي دفعها.

يرد السائق مفيش فكة.

كان الميكروباص الذي يسير في شارع صلاح سالم قد نهب الطريق نهبا ووصل إلى مكان عمل صاحبنا.

نزل صاحبنا وهو يلقي نظرة شاملة على السماء الممتدة، وقد وقر في نفسه يقين أنه لابد من الانفصال التام بلا رجعة عن زوجته ذات العصبية الزائدة. ولكن هذا اليقين التام بضرورة الانفصال التام قد وقر في نفسه منذ بداية زواجهما، ولكنه لم يتحرك في اتجاه الانفصال قيد أنملة واحدة.

دخل مكان عمله، وسار في الطرقة الواسعة الممتدة، حتى دخل مكتبه، وانهمك تماما في عمل متصل.

السلام عليكم

ذهب بعد العشاء إلى قرية الروضة لكي يبيّت على صاحب القمبيل الذي سيدرس له الأرز. لم يجده، ووجد أباه المسن يجلس أمام براد الشاي والجوزة فدعاه لذلك فقبل، وظلا يتسامران ويشربان الشاي ويدخنان الجوزة. قال الأب العجوز: من أي طريق جئت؟

قال: جئت من الطريق الذي يمر على بيت شاهق منفرد عن القرية.

قال الرجل العجوز وهو يشد نفسا عميقا من الجوزة: هذا بيت الحاج هاني.

قال صاحبنا: لم أشاهد بيتا مثله في القرية.

قال العجوز المتمرس: الشيخ هاني لم يكن يملك شيئا من حطام الدنيا، وربما قضى اليوم والليلة بلا طعام يذكر لضيق ذات اليد، وكان طعامه هو وأسرته البامية والرجلة والسريس. كل ذلك من حقول الناس.

وفي ليلة من الليالي نام جائعا، وقد بلغ به الجوع مبلغا عظيما، وذهب في النوم، فرأى ليلة القدر في منامه وطلب أن يرزقه الله مالا وفيرا. وأثناء استغراقه في النوم الثقيل، ارتجت نفسه ارتجاجا عظيما حين سمع اصطدام عربة بيجو بشجرة ضخمة على الطريق السريع الذي يمر قريبا من بيته، وسمع صراخا حادا، فقام مفزوعا، وكان هو أول من وصل إلى هذه السيارة المحطمة، فوجد كل من فيها جثثا هامدة، وقد كانت كتل الدم

تغطي الأسفلت وقد تهشمت السيارة تماما والجثث.

وهنا وجد صاحبنا بجانب إحدى الجثث حقيبة مليئة بالأموال الضخمة، فأخذها مسرعا، وعاد إلى بيته دون أن يراه أحد، وحفر حفرة عميقة في زريبة بيته الفارغة تماما من أي حيوان، وأخفى الحقيبة فيها.

بعدها بدأت آثار النعمة تظهر عليه، فامتلأت زريبته بالبهائم، وأصبح الدجاج يصيح ببيته، وتحسن طعامه وتحسنت ملابسه، وبعد عامين من هذا الحادث بنى هذا البيت الشاهق، واشترى أرضا وأصبح من ذوي الأملاك.

قال صاحبنا: ولكن هذا مال حرام يا حاج.

قال الرجل المسن: نعم. والحرام لا ينفع. فقد مات الشيخ هاني بحسرته على ولديه الشابين، فقد بلغ ابناه مبلغ الرجولة، وأراد أن يزوجهما. ولكن في عماية الصباح دهستهما سويا سيارة بيجو، وهما ذاهبان على الطريق السريع لشراء الفول والطعمية من القرية المجاورة، كان ذلك في أول الصباح كما حدثت حادثة السيارة البيجو من قبل في أول الصباح، وقد استيقظ أهل القرية المجاورة على صوت دهسهما وارتطامهما بالأسفلت.

قال صاحبنا: سبحان الله، لا أحد يتعظ.

قال الشيخ المسن: سبحان الله، هذه هي حال الدنيا. وهنا أخذ الشيخ المسن نفسا عميقا من الجوزة ووضع إصبعه في أذنه اليمنى، وجعل

يحرك إصبعه داخل أذنه، ثم قال: حينما كنت طفلا صغيرا ألعب في طرقات القرية جلست على كومة من الزلط، فوقعت في يدي زلطة صغيرة جدا، ووضعتها في أذني، وفرحت بأنني وضعتها في أذني، وجعلت ألعب على الزلط، وحينما أردت استخراجها لم أستطع، حاولت وحاولت ولكن ما باليد حيلة، ذهبت إلى أمي باكيا، فقالت لي: مالك؟

قلت: زلطة في أذني وهناك وش كبير في رأسي.

جاء أبي وأعمامي وحاولوا استخراج الزلطة، ولكن الزلطة لم تخرج أبدا.

تم استدعاء الحلاق، فجاء بالقطن والمرهم والماء الساخن ووضع الماء في أذني ووضع المرهم أيضا، وحاول أن يستخرج الزلطة من أذني، ولكن الزلطة لم تخرج أبدا، كل هذا وأنا أبكي.

كنت الولد الوحيد الذي بقي لوالديّ، فكان ألمهما لما أصابني بالغا.

بعد العصر أخذني أبي وأمي إلى المديرية عند الدكتور شعبان، وحينما رآني قال: لابد من عملية جراحية عاجلة.

تمكن الخوف مني، وبدا الحزن والغم على والديّ، فجاء الدكتور بسائل ووضعه على الزلطة، وجعل بحرص بالغ يحاول تحريكها، وفجأة سقطت الزلطة من أذني فأحسست براحة كبيرة وفرح والديّ فرحا غامرا.

فقال صاحبنا: الحمد لله على نزول هذه الزلطة.

قال الأب العجوز: نعم الحمد لله.

قال صاحبنا: وما حكاية عديلة الهبلة؟

قال الشيخ المسن: هل عرفت بها؟

قال صاحبنا: نعم.

قال الشيخ المسن: لم تكن تملك من حطام الدنيا شيئا ذا بال، ولكنها عملت عمرة رغم فقرها الشديد، في بيتها الريفي الضيق جدا ربما مر اليوم واليومان وهي على طعام واحد، وكانت تلقي الحبوب فوق سطح بيتها كي يأكل منه الحمام والعصافير . وتخبز الخبز في بيتها وتفتته ثم تلقي به فوق سطح البيت فتأتي الطيور كي تأكل.

وكان أهل قريتي يطلقون عليها عديلة الهبلة. ولكن عندما ماتت عديلة الهبلة، وتم غسلها وتكفينها ووضعها في النعش وحمله أربعة رجال أشداء منطلقين من بيتها إلى المقابر التي تبعد عن القرية حوالي أربعة كيلو مترات، حلق الحمام والعصافير بكثرة واضحة فوق نعشها وظل يتبعها منذ خروجها من بيتها حتى دخلت قبرها في سلام، والناس يشاهدون ذلك متعجبين من كراماتها ويهتفون الله أكبر، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

قال صاحبنا: سبحان الله، هذه كرامات واضحة.

قال الشيخ المسن: نعم، والكل يعرف ذلك، ولكن قريتنا لم تحسن صنعا معها.

قال صاحبنا: وكيف كان ذلك؟

قال الشيخ المسن: لأن قريتنا لم تبن لها مقاما، فهي من أولياء الله

الصالحين، والدليل أسراب الحمام والعصافير التي سارت في جنازتها، وعملت مظلة على نعشها.

وهنا تذكر صاحبنا الشيخ مبروك، فقال قريتكم أيضا لم تبن للشيخ مبروك مقاما.

قال الشيخ المسن: نعم، والقرية مخطئة في ذلك.

قال صاحبنا: وما حكاية الشيخ مبروك؟

قال الشيخ المسن: الشيخ مبروك ظل يعمل لسنوات طويلة عند أهل بيت من البيوت المتيسرة في القرية، وكان لا يكاد ينفق شيئا من دخله. فهو يلبس جلبابا واحدا طيلة العام بكامله، وقد أخذ هذا الجلباب ألوانا شتى من كثرة ما يصيبه نتيجة العمل عند أهل هذا البيت، وكان سيره حافيا أكثر منه منتعلا. أما طعامه فأقل شئ يكفيه. وكان يحتفظ بدخله عند سيدة هذا البيت ولا يأخذه حتى جمع مالا كثيرا يكفي لقيامه بالحج إلى بيت الله الحرام.

حينما طلب ماله من سيدة البيت كي يذهب للحج رفضت بشدة وقالت له: إنها هي التي ستذهب إلى الحج. استسلم محمد مبروك لقدره ولم يجادل سيدة البيت كثيرا وانطوى قلبه على لوعة كبيرة بسبب حرمانه من زيارة بيت الله الحرام.

حينما ذهبت سيدة البيت إلى الحج وطافت حول الكعبة فوجئت بمحمد مبروك بجانبها مع الحجاج الكثيرين وهو يلبس ملابس الإحرام

البيضاء، وقد اكتسى وجهه بهالة من النور الباهر، وكان يطوف مثلها فتعجبت كثيرا من مجيئه إلى الحج بلا مال. وكانت تراه بجانبها يلقي الجمرات مثلها تماما. فزاد تعجبها بل إنها سمعت هاتفا يهتف بها بأن هذه الحجة كتبت لمحمد مبروك ولم تكتب لكِ.

حينما عادت سيدة البيت من الحج إلى القرية لم تذهب إلى بيتها مباشرة، وإنما وقفت في جرن القرية الواسع وهتفت بأعلى صوتها في جموع الفلاحين الذين جاءوا حينما رأوها مباركين لها على أداء فريضة الحج، وقالت: هذه الحجة لم تكتب لي وإنما كتبت للشيخ محمد مبروك، وقد رأيته بنفسي في الحج، فتعجب الناس من قولها، فمحمد مبروك لم يغادر القرية أبدا.

ثم اشترت ملابس جديدة للشيخ محمد مبروك وأصبح أهل القرية جميعا يتبركون به، وحينما مات زعم أهل القرية بأن نعشه طار وبنوا له مقاما.

قال صاحبنا: وهل طار نعشه حقيقة أم أن الناس يقولون ذلك؟

قال الشيخ المسن بلهجة صارمة: لقد طار نعش الشيخ مبروك ثلاث مرات، وقد رأيته بعيني.

قال صاحبنا: إذن هو ولي من أولياء الله الصالحين.

قال الشيخ المسن: نعم، والدليل على ذلك، وجوده في الحج مع سيدة المنزل، وطيران نعشه ثلاث مرات كاملة.

وهنا أخذ الشيخ المسن نفسا عميقا من الجوزة، ثم أعطاها لصاحبنا فأخذ نفسا أشد، وقد امتلأت الحجرة الريفية بدخان الجوزة وكتل الحكايات.

قال صاحبنا، وقد أطلق موجات من الدخان المتتابع: إن قريتكم مباركة، ففيها أولياء كثيرون.

قال الشيخ المسن: نعم، ولكن ذلك لا يمنع من وجود من يعشقون النساء، ويتركون لهن أموالهم.

قال صاحبنا: وكيف كان ذلك؟

قال الشيخ المسن: كان أحد جيراننا طويلا جسيما أبيض الوجه مشربا بحمرة، وكأنه انفلت من عصور الرجال ذوي الهيبة والمكانة.

وعلى الرغم من فقره المدقع وشدة معاناته فإن ملامحه تنم بوضوح عن كرم محتد وعظمة في النفس والجسم.

وكان كثيرا ما ينظر إلى الثمانين فدانا التي كان يملكها جده، ولم يبق منها قيراط واحد، بحسرة وألم وتسليم في النهاية بحال الدنيا الذي يتغير سريعا من حال إلى حال.

ترك زوجته الجديدة وأولاده الأربعة ذاهبا إلى السوق الذي يبعد عن قريتنا الصغيرة بخمسة أميال كاملة سيرا على الأقدام، حاملا سبته في يده، في حين كانت زوجته الجديدة وأطفاله الأربعة الذين فقدوا أمهم منذ عام فرحين جدا حينما عرفوا بذهابه إلى السوق، وظلوا يمنون أنفسهم بطعام

جيد يعوضهم ما لاقوه من شظف شديد في العيش.

سار صاحبنا عبر الحقول الممتدة وقد بدا قرص الشمس موضوعا بعناية في عربته الذهبية التي تجرها الخيول السريعة لينطلق من بوابة السماء الشرقية ليقوم برحلته عبر الفضاء الممتد على مدار نهار كامل بعدها يدخل بوابة السماء الغربية تاركا العالم لستائر الظلام المنسدلة عليه، ليعود في اليوم التالي لإزالتها بأضوائه الباهرة. وهكذا عبر الدهور والأزمان.

سار صاحبنا على شاطئ الترعة الشرقية تحت أشجار الصفصاف والجميز في حين كان طائر أبو قردان الأبيض وقد اكتملت أسرابه يهبط في الحقول الممتدة.

وصل صاحبنا إلى السوق الذي لا يذهب إليه كثيرا بسبب ضيق ذات اليد، وبعد نهار حافل بالبيع والشراء والفصال وغير ذلك رجع بسبته ممتلئا عن آخره بأصناف الطعام، فقد اشترى فاكهة الشمام التي تذهب رائحتها إلى أقصى بيت في الحارة واشترى غيره الكثير والكثير.

عاد صاحبنا حاملا سبته في يده، وهو يحسب المسافة عبر الحقول ويتخيل فرحة زوجته وأولاده بهذا السبت وما فيه.

وحينما انفلت من المدينة وأصبح على مشارف الحقول في رحلة العودة قابلته امرأة تلبس جلبابا واسعا، وفي وجهها وضاءة ومكر.

وعلى الفور اندمجا في حديث لاهب، بدت فيه الأشواق خارج السيطرة، وطيور الرغبة تقفز عبر الحقول الممتدة نافرة من صدريهما،

واستمر ذلك الحديث فترة كان من نتيجته حصول هذه المرأة على السبت كاملا هدية لها من مولانا العاشق.

قال صاحبنا: لقد خدعته، وأخذت منه السبت بما فيه.

قال الشيخ المسن: نعم، لا شك في ذلك.

قال صاحبنا: وهل حقا أنكم أرجعتم نعش أحد أبناء قريتكم من ذوي المكانة الفائقة، وكان هناك إصرار منكم على عدم دفنه في مقابركم؟

نظر الشيخ المسن عبر نافذة الحجرة، وكأنه يرى ذلك المشهد أمامه، ثم قال: نعم.

قال صاحبنا: وكيف كان ذلك؟

قال الشيخ المسن وقد استلم الجوزة من يد صاحبنا، وأخذ نفسا عميقا، ثم أطلق الدخان في سماء الحجرة: لقد كان منير باشا ابن شيخ البلد، وكانت أسرته كبيرة جدا، وبها شخصيات كثيرة لها مكانتها، ولكن منير باشا هو الأعظم مكانة، فقد كان من ذوي النفوذ والمكانة في الدولة، وعلى الرغم من نفوذه الكبير ومكانته الفائقة فإنه لم يخدم أحدا من عائلته، ولم يخدم أحدا من أبناء القرية كلها.

وفي يوم من الأيام ذهب أبوه إلى مكان عمل ابنه، وكان الابن يحيط نفسه بحراسة كبيرة جدا، وشاهد قائد الحرس شيخا قرويا يلبس الجلباب والطاقية والبلغة يتقدم واثقا إلى الباب الخارجي كي يدخل، فأوقفه الضابط قائلا: ماذا تريد يا حاج؟

قال: أريد الدخول إلى ابني منير.

قال الضابط: منير باشا؟

قال الأب: باشا على نفسه، أنا أبوه.

قال الضابط: لحظة يا حاج. استرح هنا، حتى أعود إليك.

صعد الضابط إلى منير باشا صاحب المقام الرفيع، وأخبره أن أباه يريد الدخول، ووصف له الرجل المنتظر بالخارج.

قال منير باشا بعد أن أطل عليه من نافذة مكتبه: هذا ليس أبي، وإنما هو الكلاف الذي يعمل في أملاكنا في القرية، ولم يأذن له بالدخول.

نزل الضابط، وأبلغ الشيخ بما قاله منير باشا صاحب المقام الرفيع فحزن الشيخ حزنا كبيرا، وأخرج بطاقته وأراها للضابط، وقال له وهو في غاية من الحزن والدموع، اقرأ الاسم. ابني يرفض لقائي!.

ثم عاد إلى القرية حزينا، وقص على أهله ما حدث، ثم أصيب بأزمة قلبية راح ضحيتها.

فأرسلت العائلة لمنير باشا صاحب المقام الرفيع إنذارا بألا ينزل القرية مطلقا، وإن جاء إلى القرية فإنهم سيقتلونه، نظير ما تسبب في وفاة أبيه.

مرت الأيام والسنوات، وجاء نعش منير باشا في سيارة إسعاف، لكي يدفن بجانب آبائه، فوقف رجال عائلته أمام الإسعاف، وطلبوا رجوع

السيارة من حيث أتت، لأن منير باشا لن يلمس تراب القرية حيا أو ميتا.

استمرت المسامرة مع شرب الشاي والجوزة حتى أغرق طائر الليل الأسود في البعد، ولم يأت صاحب القمبيل فأبصر أجفان الرجل المسن الثقيلة وهي تنكفئ على عينيه، فاضطر للمغادرة على أن يأتيه في الصباح، ويكون والده المسن قد أخبره بمجيئه إليه.

حين خرج من عنده كانت قطع الضباب تتساقط على أشجار الصفصاف على حافة الجبدية الممتلئة بالمياه، وأكوام السباخ تتعالى خلف بيوت الفلاحين، في حين كانت أضواء الأعمدة الكهربائية في القرية الآمنة لا تكاد ترى من كثرة الضباب المتراكم. كان الطريق الذي يربط بين قريته التي تبعد مسافة كيلو متر ونصف الكيلو عن قرية الروضة ضيقا متعرجا مرتفعا في بعض الأماكن جدا، ومنخفضا في بعضها الآخر جدا، مليئا بأشجار الحلفا الهائجة. وهو يستغرق مسافة أكبر في السير. آثر صاحبنا أن يسير عبر الحقول المترامية تحت قطيفة السماء المرصعة بالنجوم.

وكانت مركبة القمر تصعد وتهبط وتختفي وتبين عبر كتل الضباب المتراكم، في حين كانت أيادي الهواء الناعمة تلمس وجهه وهو يسير بين الحقول، وأصوات هسيس يتعالى من الأرض التي تحمل تاريخ وعبق القرون وأنفاس من زرعوها وتبدو قريته من بعيد وقد علا الضباب مصابيحها.

مر في ذهنه فجأة سيل من قصص الجن والعفاريت المعروفة في القرية، ومن هذه القصص بالطبع قصة عفريتة عادل البوهي، حيث كان عادل البوهي رجلا مكتمل الرجولة، ودائما ما يذهب لصلاة الفجر

مبكرا، وكان يطيب له أن يسير على حافة الطريق السريع بجانب القرية بعد صلاة الفجر، مصطحبا أحد أصدقائه المقربين، حيث يتلقيان قطرات الندى المتساقطة صباحا ويستقبلان هواء الحقول العليل، ويريان مركبة الشمس الذهبية وهي في أول ظهورها من الشرق معلنة عن رحلتها اليومية المباركة.

كان عبير الحقول الفائح يمنح للصبح نشاطا وحيوية فائقة، ذلك حينما عنّ لعادل البوهي أن يجلس هو وصاحبه على حافة الطريق السريع تحت الضباب المتراكم وأثناء انهماكهما في الحكي والسعادة الغامرة بالصبح جاءت سيارة من خلال كتل الضباب المتراكم وسوّت عادل البوهي في لحظة واحدة بالأرض. وقد رأى صاحبه ذلك بعينيه.

وعلى الفور جاء الفلاحون بصفائح الجاز وصبوه على مكان الحادث وأشعلوا فيه النار حتى لا تخرج عفريتة عادل البوهي لهم بالليل. ولكن رغم ذلك فقد ظل الخوف رابضا في قلوبهم، فقد تظهر عفريتة عادل البوهي فجأة.

كما أن حكايا الجنيات اللائي يتزوجن شابا من شبان الفلاحين تملأ أسماع القرية كلها.

فتهيأت نفسه لملاقاة جنية فجأة أو جنية تعرض عليه الزواج والذهاب به تحت الأرض للدخول بها. فهو ما زال يذكر بقوة قصة فوزي رجب الذي يقص بثقة متناهية وإيمان راسخ قصة زواجه من جنية ساحرة، وترديد أهل القرية كلهم لهذه القصة على أنها حقيقة لا يأتيها الباطل أبدا.

وكان عدم زواج فوزي رجب رغم تخطيه الأربعين ربيعا يدعم في نظر أهل القرية قصة زواجه الشائعة من جنية ساحرة.

قال فوزي رجب لقد كنت سائرا على مصرف الشعلّة الممتلئ بالأشجار الضخمة على حافته، فأبصرت شمعة يتمايل نورها على فرع جميزة عجوز، فاستغربت من استقرار شمعة مضيئة في آخر الليل فوق هذه الجميزة، وسمعت مواء كلب تحتها، مالبث هذا المواء أن تحول إلى أنين إنسان، قلت في نفسي لابد من مساعدة هذا الرجل الذي يئن، فذهبت إليه ولم يكن الخوف يعرف طريقا لقلبي، ولكم كانت دهشتي حين رأيت أسفل الجميزة العجوز قمرا أضاء ليل القرية المظلم. لقد كانت فتاة ساحرة أخذت بمجامع قلبي من نظرة واحدة.

قلت لها: لماذا هذا الأنين الذي سمعت؟، قالت: لأني أعشق حبيبي الذي فارقني منذ أكثر من ألف عام، فقد ظن أني وافقت على الزواج بغيره، فتركني وهاجر ومن ليلتها وأنا أسير في آخر الليل أبحث عنه حتى أخبره بأنني لم أخن حبه، ولم أتزوج ابن عمي. وها أنا ذا وجدتك يا حبيبي.

وفجأة أبصرت عيناي عربة أنيقة تجرها الخيول فركبت بجانبها، وقد وضعت يدها اللدنة الرقيقة حول خصري ووضعت يدي حول خصرها، ثم انطلقت الخيول بعربتنا الساحرة عبر الحقول الممتدة، حتى دخلنا قصرا كبيرا به حجرات من ذهب، فدخلنا حجرة ونظرت إلى الباب بعينيها، فانغلق الباب علينا، وأخذتني في حضنها الناعم، وظللت في حضنها، وقد أنجبت منها أربعة أولاد يعيشون في قصر من ذهب، وأنا معكم بالنهار،

وجزء من الليل، ولكن كل ليلة قبل الفجر بساعتين تأتيني بعربتها الساحرة التي تجرها الخيول وتذهب بنا العربة عبر الحقول الممتدة تحت قطيفة النجوم حتى ندخل قصرنا المسحور فأرى أولادي، وأدخل معها حجرتنا المنفردة، وأعيش معها قصة حب لاهب.

كانت هذه القصة تدور في ذهن صاحبنا وهو يسير في آخر الليل عائدا إلى قريته، وجعل يترقب ظهور جنية ساحرة وعربة ساحرة تجرها الخيول وتنطلق به عبر حقول القرية الممتدة إلى قصر مسحور جدرانه من الذهب. وهنا قفزت إلى ذهنه صورة زوجته الشابة وطفله الصغير، وصورة أبيه وأمه وإخوته، وكيفية تلقيهما خبر اختفائه مع جنية المساء وعربتها الساحرة التي تجرها الخيول، فاستقر في قلبه يقين بأن هذه الجنية الساحرة لن تأتيه.

ظل سائرا حتى اعترضت طريقه فجأة ترعة ممتلئة بالمياه، فخلع نعله ووضعه في يده، وأمسك ذيل جلبابه بأسنانه، ورجع مسافة مناسبة ثم انطلق في عدو جنوني، وقد حرك كتل الهواء أمامه، فانفرد جلبابه على الجزء الأعلى من جسده، فبدا وكأنه نسر محلق، ثم قفز فوق مياه الترعة حتى ارتطم بحافتها، فأمسك بالنجيل وكتل الطين الناشف بحافتها، وجعل يعالج ذلك حتى صعد إلى أعلى، وما كاد أن يعتدل حتى فوجئ برجل وامرأة يستغرقان في حضن متصل شديد الحرارة والشوق. فقال: السلام عليكم.

فلم يرد أحد، ولكنه رفع صوته مرة أخرى قائلا: السلام عليكم.

فقال الرجل سر ولا تنظر إلينا ولا تتكلم، واعلم أن الليل غدار.

فسار تضرب أقدامه في كتل الطين الناشف وبقايا الأرز المدروس، عابرا القنوات الصغيرة التي تعترضه، وأحيانا يرى قطة نافرة تموء، وفي مرة أخرى يشاهد فأرا ضخما يجري بسرعة فائقة، في حين ارتفع نقيق الضفادع في المياه الصغيرة وهو يشق عنان السماء الممتدة، وهو في كل هذا يحاول بقوته أن يتماسك في هذا الليل المخيف، حتى وصل إلى الشارع الرئيسي لقريته، وقد سكن قلبه حين سمع ميكروفون مسجد القرية معلنا الانتقال إلى إذاعة خارجية من مسجد مولانا الإمام الحسين لنقل شعائر صلاة الفجر.

الكورنيش

١. بعد يوم حافل بالعمل الشاق والقهر من رئيسه، وتحبير الأوراق في مصلحته والمجئ لرئيسه بملف والعودة بملف، عاد إلى بيته، وكان من حسن حظه أن وجد الأوتوبيس في المحطة الأولى فارغا فقفز فيه وهو غير مصدق ثم اختار مجلسه بجانب إحدى نوافذ الأوتوبيس المطلة على البحر، وقد زحزح زجاج النافذة حتى تمتلئ نفسه بمنظر البحر وأمواجه الصاخبة، وهوائه المنعش، والمصطافين على الشاطئ الممتد.

وما هي إلا لحظات حتى امتلأ الأوتوبيس عن آخره، فأخذ نفسا عميقا ممتنا لحظه الحسن أن جعله يحصل على هذا المقعد الإستراتيجي.

سار الأوتوبيس الهوينى منطلقا من المحطة الرئيسية حتى انفلت منها وسط زحام شديد من سيارات بماركات مختلفة وقد اكتظ الشارع بها، ووسط مشاة بأولادهم يسيرون بحرص في شوارع الإسكندرية، وبعد فترة كان الأوتوبيس يمرق على كورنيش الإسكندرية مدينة السحاب الخالدة.

بدأت روائح العرق تملأ الأتوبيس، وقطرات العرق تتساقط حتى تبلل ملابس الجميع في هذا الأتوبيس، صوت الكمساري ينادي بحسم بالغ من أجل الأجرة فهو يعرف أن هناك من يزوّغ حتى لا يدفعها، مرت في طرقة الأوتوبيس المزدحمة فتاة وضيئة الوجه، وقد أصبح جسدها مستباحا لأيدي من فيه سواء بقصد أم بدون قصد. صوت سيدة أخرى يرتفع بحدة شاتما

رجال هذا العصر الذين لا يعرفون معنى الحياء أو الرجولة، مالبث أن جاوبها صوت رجولي صارم ملقيا باللوم على المرأة التي تنافس الرجال حتى في الأتوبيس لقد كان بيتها أولى بها، أو تأخذ تاكسي.

الكمساري عقد رأسه بمنديل واسع وهو يمر سائلا عن الأجرة، أما السائق فلا يلقي بالا لكل من في الأوتوبيس فهو متعود على ذلك كل يوم.

في حين كان صاحبنا يشعر في قرارة نفسه بارتياح بالغ وهو في مقعده ذاك يشاهد الموج والناس وكأنه لا يركب أوتوبيسا.

كانت أجساد النساء على البحر تمتص كل كيانه، وقد بدا تفنن النساء واضحا في الكشف عن أجزاء مثيرة من أجسادهن، لم يخل الكورنيش والشاطئ من نساء بملابس كاملة، وهذه الملابس سمراء غامقة وقد ابتلت هذه الملابس عليهن من ماء البحر، فحددت أجسادهن في فتنة طاغية.

النوارس تنفلت عبر الفضاء وهي ترفرف بأجنحة رشيقة، وعلى البعد بعض المراكب تسير الهوينى.

صوت الخناقات في الأتوبيس يصل أذنه، ولكنه لا يلقي لهذه الخناقات بالا.

الأوتوبيس بعد توقفه في إحدى المحطات يمعن في السير، وصاحبنا بصره معلق بالشاطئ.

قفزت إلى ذهنه فجأة صورة أمه في القرية البعيدة، ذلك حين يذهب أبوه إلى حقله كعادته، وهي تجلس أمام الفرن وقد احمر وجهها من صهد الفرن، حيث كانت تخبز له، وبعد خبيزها ذهبت إلى الحقل حاملة معها العيش الساخن والجبن القريش وقلّة المياه.

كانت تسير بملابسها القروية وقد بدا وجهها البرئ شمسا تقابل شمس الحقل. حينما رآها والده ترك الفأس وذهب إلى رأس الحقل وهناك تحت الشجرة الكبيرة على شاطئ الترعة فتحت له صرة الطعام، فتناول إفطارا هنيئا.

وقع بصره على فتاة وضيئة جدا وهي تسير حافية القدمين على الشاطئ، وقد ظهرت مفاتنها كاملة.

لا يدري لماذا قفز إلى ذهنه ما حدث ذات يوم في قريته وهو في مرحلة الصبا، حين شق صوت النعي عنان السماء في عماية الصباح معلنا وفاة الحاج فايز أبو غانم، والدفنة بعد صلاة الظهر والعزاء اليوم بقرية الروضة، ثم سار هذا النداء يتردد في مساجد القرى المجاورة، ويشق عنان السماء. وبدأ الرجال والنساء يتوافدون على بيت الحاج فايز أبو غانم.

كان البيت الريفي الواسع يضج بالمعزين من القرية كلها، وقد ترك كل منهم ما في يده وذهب لتشييع الجنازة وتأدية واجب العزاء.

حين بدأ الناس يتوافدون على الخيمة ليستمعوا إلى قارئ القرآن الشهير مالبثت هذه الخيمة أن امتلأت عن بكرة أبيها بهؤلاء المعزين من القرية والقرى المجاورة.

حين كثر المعزون كان أهل القرية يتركون أماكنهم ليجلس هؤلاء الذين وفدوا من أماكن بعيدة.

وحين انطلق القارئ أكثر فى ترتيل القرآن الكريم، وكأنه في حالة جذب صوفي باهر صاح الشيخ الراعى : من فضلك يا مولانا صدق. صدق .

ماذا حدث يا شيخ راعى؟.

أيها الناس من فضلكم اخرجوا فورا من هذا المكان. بأقصى سرعة . بأقصى سرعة . بأقصى سرعة.

كان الشيخ الراعي معروفا لدى الجميع بأنه من أهل الطريقة، والكل يحترمه فقد ظهرت له كرامات يعرفها معظم الحاضرين، ولذا حينما رأوه ينطق بحسم بالغ بضرورة مغادرة المكان فورا وبأقصى سرعة، تزاحم الناس على أبواب الخيمة منفلتين بسرعة واضحة.

حين خرج الناس متزاحمين مسرعين وفرغ المكان تماما انطبق سقف دار المناسبات الخرسانى على أرضها بعنف شديد وصخب هائل وتكاثف الغبار.

دمعت عين أحد إخوة الشيخ الراعى وقال: لماذا أبحت بالسر يا شيخ راعى؟ لماذا أبحت بالسر؟ لماذا؟

قال الشيخ الراعى: إنها أرواح كثيرة جدا. وسيغفر الله لى.

كان صاحبنا وهو يتذكر الشيخ الراعي في الأتوبيس الذي ينهب

الأرض نهبا على شاطئ الإسكندرية الخالدة يتعجب من شمس الحقيقة الناصعة التي تكشفت لهذا الشيخ الطيب في لمحة واحدة وأنقذت كل هذه الأرواح من موت محقق تحت سقف الخيمة الأسمنتي.

سار الأوتوبيس برتابة جعلته يبحر بلا مقاومة في عالم النوم، فأبصر البيت القديم في القرية، وشجرة التوت العجوز أمام البيت الذي يقع في آخر القرية وموقعه وهو طفل في ذؤابة هذه الشجرة، حيث كان يأكل التوت ويمر عليه نسيم القرية العليل. وهو في أعلى الشجرة حانت منه التفاتة إلى الموضع الذي ترك فيه حذاءه فلم يجده أسفل الشجرة، لكنه قال لنفسه لا داعي للقلق فمن المؤكد أن الحذاء في موضعه، هو ذلك ولا شئ غيره، لأنه من غير المنطقي أن يتحرك الحذاء من موضعه، ويسقط في الترعة ملطخا بالوحل.

فجأة يسقط من أعلى شجرة التوت وقد انكسر غصنها بحدة جعلته يستيقظ فجأة، وبعد لحظات يدرك أنه ليس في القرية وإنما هو ما زال يستقل الأوتوبيس الذي يسير برتابة على شاطئ مدينة السحاب الخالدة.

فجأة رأى رجلا وامرأة بالقرب من إحدى الصخور وقد اندمجا في نظرة حالمة وأيديهما متشابكتان في وجد جنوني.

على الفور عرف المرأة من ملابسها وهيئتها، إنها زوجته وليس غيرها. على الفور قام من مجلسه وانسل برشاقة غير معهودة وسط الزحام المتشابك، وبسرعة فائقة نزل من باب الأوتوبيس الذي كان يهدئ من

سرعته بسبب اقترابه تماما من إحدى محطاته.

وصل إليهما وقد علاه الغضب والعرق، لقد كانت فعلا زوجته مع رجل غريب لا يعرفه، حينما رأته أمامها فجأة أصيبت بذهول تام.

تركها ولم يقل شيئا وعاد مسرعا إلى بيته، فأدركته معتذرة، فلم تكن ترغب أبدا في الطلاق، ولكنه صمم على طلاقها.

ذهب إلى قريته واختار أطيب الفتيات وأكثرهن طاعة، ولم تكن متعلمة مثل زوجته، وتزوجها وارتاح معها.

٢. لا تدري من أي وكر عادت روحها بعد نوم ثقيل، فقد أحست أن روحها كانت في وادي من وديان الحزن الذي يتراءى لها كثيرا في نومها، إنها تتذكر الآن تفاصيل حلمها الضاغط ليلة أمس، فقد رأت نفسها وهي في جنة وارفة الظلال وثمارها ناضجة، وحبيبها يضع يده حول خصرها، وهي تضع يدها حول خصره، ويسيران وسط أمواج رخية من الهواء العليل، وحين وصلا إلى شجرتهما العاشقة، وجلسا تحتها، اندمجا في قبلة خيالية جعلت كل خلايا جسدها تنتفض هاتفة باسم حبيبها، وهنا سقطت تفاحة ناضجة في حجرها، وحينما نظرت إليها، لم تجد حبيبها بجانبها، وتحول الهواء إلى عاصفة رملية تملأ العيون والحلق بالغصص، واختفت الأشجار تماما، وسقطت كل العصافير الملونة مختنقة، وقد جحظت عيونها، كانت عينان جاحظتان لعصفورتها الملونة تستقران في قلبها بلا رحمة.

رأت نفسها وحيدة تماما وسط صحراء الهجير، تنادي بصوت مبحوح

على حبيبها أو أي إنسان عله ينقذها من وحدتها المخيفة، ولكنها كلما استجمعت قواها ونادت بأعلى صوتها لا يخرج منها صوت، وإنما يرتفع قلبها بعنف ويهبط بعنف وكأنها تصارع أمواج الموت المتلاطم، حتى ندت منها صرخة هائلة استيقظت على إثرها، في حين كان زوجها في الشارع يشتري العيش والفول والفلافل.

بعد أن جهزت له الإفطار والشاي، ارتدى ملابسه، ونزل متوجها إلى عمله.

نظرت من النافذة المطلة على الشارع وتأكدت أن زوجها قد ذهب فعلا إلى عمله، وهو لن يعود قبل عشر ساعات على الأقل. فدخلت الحمام، وأخذت دشا منعشا، وتفننت في غسل مناطق جسدها، وارتدت أجمل ثيابها، لقد ارتدت الثوب الذي اشتراه لها زوجها بعد أن قبض الجمعية التي تستغرق عشرة أشهر كاملة من الدفع فيها.

وخرجت للقاء حبيبها. وقد رشت البرفان المنعش على ثيابها ووجهها، ووضعت المكياج الخفيف على وجهها، فكانت آية من آيات الجمال الساحر.

وحين نظرت إلى نفسها في المرآة، ورأت جمالها هتف قلبها ناقما على ما وقعت فيه من ارتباط بهذا الزوج الذي لا تكاد تطيقه. فطريقته في الأكل منفرة جدا، وصوت شخيره أكثر تنفيرا وإزعاجا. وهو في منتهى البخل، فالحياة معه ماهي إلا جحيم الرتابة وأياما تشبه أياما وليال تسير على وتيرة مملة. إنها تستدعي وجهه وهو نائم وكأن غضب الله قد تلبّس

هذا الوجه. وحينما يكون متخففا من ملابسه الداخلية في البيت يبدو كرشه أمامه واضحا وضوحا شديدا.

وهو ما إن يدخل من باب الشقة حتى يصيح : الطعام. أريد الطعام، وبعد أن يأكل يريد الشاي، ثم ينام، وربما نام حتى الصباح وربما استيقظ في آخر الليل فيجدني نائمة فيوقظني كي أضع له الطعام.

وهو بخيل جدا في كلامه، ولا يأخذني للنزهة، وإذا أراد العلاقة الحميمة فإن كل ما يشغله اقتحام قلعتي الصغيرة بلا مقدمات، إن خلايا جسدي تقشعر منه.

ربي لم حكمت عليّ بذلك؟، إن الزواج من هذا الزوج لعنة حقا، ماذا أفعل؟ أنا لا أستطيع أن أعيش سعيدة معه، ولا أستطيع أن أطلب الطلاق منه. إذ كيف أواجه عائلتي والناس وأنا مطلقة؟ والمطلقة في مجتمعنا تطاردها اللعنة الدائمة. إن الطلاق أشبه بالإعدام تماما بالنسبة للمرأة.

ثم تذكرت حبيبها وموعده فرقص قلبها من الفرح، وانطلقت من شقتها وكأنها فراشة. كان اللقاء على الكورنيش.

حين خرجت وركبت الترام من أول محطة له، كانت الأماكن الفارغة كثيرة فاختارت موقعا إستراتيجيا بجانب النافذة.

وما هي إلا لحظات حتى اهتز جسدها اهتزازا عنيفا مع حركة الترام الفجائية، وصوتها العنيف، ثم انطلق الترام عبر شوارع الإسكندرية الفاتنة.

حانت منها التفاتة فوجدت رجلا يبتسم لها، فنفرت منه، وأظهرت

نفورها فنظر الرجل إلى الجهة الأخرى وقد غادرته ابتسامته.

فتحت حقيبة يدها ونظرت في المرآة الموضوعة فيها، فضغطت على شفتها السفلى حتى ازداد احمرارها، وعدلت من خصلة شعرها الذهبية، وهتف قلبها: حبيبي.

نزلت من الترام ثم عبرت الشارع حتى وصلت إلى الكورنيش وفي المكان المحدد وجدت حبيبها، كان شابا طويلا بلا نتوءات ظاهرة في جسده وكأنه لاعب رياضي، وهو ذو عينين واسعتين ساحرتين. حين التقت عيناهما انتفض قلبان فجأة، وتعانقا دون أن يلقيا بالا لضجيج المصطافين حولهما.

فقد كان اللقاء في مكان بعيد جدا عن حيهما، ولا يتوقعان أن يعرفهما أحد وسط هذا المولد الذي يذهل كل واحد فيه عن نفسه، فالكل مشغول بمن معه.

أمسك يدها بحنان بالغ، وسارا الهوينى على شاطئ المدينة الساحرة حتى استقرا أسفل مظلة وحدهما. وتحدث قلبان محرومان، وجسدان يهتفان، وعينان تبوحان بكل مكنون من الأسرار.

ومر الوقت سريعا جدا فلم يشعرا به، وكأنما فتح باب من أبواب الأبدية لروحيهما فتعانقا عناقا جعلهما روحا واحدة، وفجأة انتبهت على سواد شخص يحدق بغيظ شديد واستغراب فائق، وينقل عينيه بين العاشقين المندمجين، وحين انتبهت من غفوتها العاشقة عرفت فيه زوجها، إنه هو ولا شئ غيره.

وحين اطمأن إلى أنها عرفته، فقد نادته باسمه، وقالت أرجوك لاتفهمني غلط. لكنه لم يكلمها كلمة واحدة، وتركها مع عشيقها، وسار بخطوات متزنة، وقد هبطت على جسده كتل متراكبة من الحزن والجحيم.

حين تركها ومضى نهضت بسرعة خلفه، تناديه، وتقسم بأغلظ الأيمان عليه ألا يفهمها غلط، وأن يسامحها إن كانت أخطأت، فهي تحبه، ولا تريد أن يطلقها، ولكن صاحبنا لم يكلف نفسه أن يعيرها أي اهتمام ظاهر.

وفي هدوء تام ذهب إلى المأذون وطلقها فورا. لكم أحست بطعنة نافذة في القلب، طعنة جاءتها بلا رحمة.

وحين حاولت بعد ذلك أن تعرف رأي حبيبها العاشق فيما حدث، وأن تأخذ منه كلمة محددة من أجل الارتباط به، وتعويضها عما حدث لها كان هذا العاشق المتيم كأنه فص ملح وذاب.

جميل البنهاوي

كان جميل البنهاوي شابا أشقر الوجه ذا عيون ملونة وشعر حسن يقف من الأمام فيعطيه اتساعا وشموخا في الجبهة، وكان تام الشكل، ويعرف الجميع أنه أقوى جيله على الإطلاق.

لم يحصل على مجموع كبير في الصف الثالث الإعدادي فدخل الأزهر الذي كان يأخذ في ذلك الوقت من مجموع أقل كثيرا من الثانوية العامة.

كان فريق القرية لكرة القدم ينتقل من قرية لقرية في منافسة على كأس مركز ديرب نجم.

وعلى الرغم من وجود لاعبين لا شبيه لهما في الفريق فإنه لم يحصل أبدا على كأس المركز.

لقد وصل فريق القرية إلى الدور النهائي، وعليه أن يلعب المباراة النهائية في قرية صافور، تلك القرية الكبيرة جدا، التي دائما ما يحصل فريقها على هذه الكأس. حيث تزين مركز شباب صافور مجموعة كؤوس لامعة حصل عليها فريقهم. فقد كان فريقهم يضم ثلاثة لاعبين يلعبون في نادي الزمالك ونادي المقاولين العرب.

انطلقت سيارتان داتسون مكشوفتان من وسط قريتنا باللاعبين والجمهور، وسط الهتافات التي تشق عنان السماء، وقد انطلق غناء الجمهور عاليا، وهم يهتفون:

بيبسي سي بيبسي كولا

الجواشنة هيا الأولى

وهكذا، وكلما مرت إحدى فتيات القرية الجميلات انتفض أحد اللاعبين بالهتاف كي يلفت نظرها وهكذا.

سارت السيارتان ببطء شديد متجهتين غربا حيث تقع قرية صافور الواسعة على بعد كيلو متر واحد، في حين اتفق البعض الذين لا يملكون مالا يدفعونه للسيارة على أن يأخذوها مشيا على الأقدام.

كانت هذه المباراة حديث القرية كلها وقد انعقد الأمل على أحسن لاعب هجوم في المركز كله صاحب المهارات الفائقة والقدم الذهبية، كما انعقد أيضا على أحسن لاعب وينج يمين في المركز كله أيضا ذلك السريع القدمين الذي لا يستطيع أحد أن يجاريه.

سارت السيارتان ببطء شديد نتيجة الحمولات الزائدة قبل صلاة العصر بنصف ساعة. وعلى المصرف الميري الذي تسير على إحدى جانبيه السيارتان بدت الحقول المترامية ونبات القطن الصغير لا نهاية لهما. كانت تظهر بعض الترع والقنوات عبر هذه الحقول وبهائم الفلاحين من البقر والجاموس والحمير يتجاوب أصداؤها عبر الحقول الممتدة.

بسلام وصلت السيارتان ونزل اللاعبون والجمهور وتم استقبال اللاعبين في مركز شباب صافور الواسع وجاءت أطباق السوداني والترمس فالتهم اللاعبون هذه الأطباق ببساطة فائقة.

جاء موعد المباراة فظهر فريق صافور بزيه الأزرق المقلم وشورته الأسود في حين ظهر فريق الجواشنة بزيه الأحمر وشورته الأبيض.

وقد اصطف جمهور البلدين على حافة الملعب وكثير منهم صعد البنايات التي تطل على الملعب، وقد اندمج اللاعبون في لعب فائق.

بدأ لاعب هجوم قرية الجواشنة صاحب الأقدام الذهبية والذي لم تشهد ملاعب هذه الناحية شبيها له في مهاراته بتسجيل هدف رائع أشعل المباراة تماما. وبعد سبع دقائق كاملة أتبعه أحد لاعبي فريق الجواشنة بهدف ثان جعل فريق قرية صافور في موقف حرج جدا على أرض ملعبه وبين جمهوره.

كان حمد الديب حارس فريق الجواشنة متألقا وأنقذ شباكه من تسديدة لا ترد. في حين كان هتاف المشجعين يتصاعد عاليا حتى وصل للحقول المجاورة التي تركها بعض الفلاحين وجاءوا لمشاهدة هذه المباراة النهائية.

كان جميل البنهاوي يقود مشجعي فريق الجواشنة بحماس بالغ وعزيمة لا ترد.

ولكن حدث أن أحرز أحد لاعبي صافور هدفا رائعا في مرمى حارس قرية الجواشنة، مما أشعل المباراة تماما.

وبعد خمس دقائق فقط جاء الهدف الثاني، وبعدها بفترة قصيرة جدا جاء الهدف الثالث في مرمى فريق الجواشنة، فغضب جميل البنهاوي غضبا

فائقا ونزل إلى أرض الملعب وهو يسب ويشتم حارس المرمى الذي فر أمامه فرارا مذعورا من هذا الوحش المخيف.

وقرر جميل البنهاوي أن ينزل هو بديلا عن هذا الحارس الذي دخلت في شباكه ثلاثة أهداف كاملة في فترة قصيرة جدا. لم يجد رئيس نادي الجواشنة بدا من هذا التغيير. نزل جميل البنهاوي إلى أرض الملعب وقد ظهر البياض اللامع لجسمه وكشف جسده عن فتوة فائقة وفحولة تنبض بالحياة. تم استئناف المباراة التي اشتعلت بصورة جنونية وبدا فريق صافور كعاصفة لا ترد ولم يفلح اللاعبان الفائقان لقرية الجواشنة في صنع شئ أمام هذا الهجوم العاصف.

ومن مسافة مناسبة جدا سدد أحد لاعبي فريق صافور كرة شديدة القوة تصدى لها جميل البنهاوي بقوة لا ترد.

بعدها بفترة تم تسديد كرتين متتابعتين في غاية القوة ولكن هناك حارس مرمى بطل يتصدى لأعنف الكرات برشاقة وقوة.

لقد بدا جميل البنهاوي وهو يحرس المرمى في شكله التام وجسمه شديد البياض وكأنه هرقليس لا سبيل إلى اختراق شباكه.

بدأ مشجعو فريق الجواشنة يهتفون باسم جميل البنهاوي ، ويشق هتافهم عنان السماء، وبدأ فريق الجواشنة يأخذ زمام الهجوم واقترب كثيرا من التسجيل، ولكنه لم يسجل.

حاول لاعبو صافور بكل ما أوتوا من قوة الركلات اختراق مرمى

هذا البطل ولكن هيهات. جاءت تسديدة أشد قوة من سابقاتها، وإذ بهتاف الجمهور يصاعد للأعالي هاتفين باسم جميل البنهاوي ، فقد استدار بحركة سريعة ورشيقة وأدار ظهره للكرة فاصطدمت بظهره العريض وعادت مرتدة إلى أحد لاعبي الجواشنة، الذي أعطاها على الفور لصاحب القدم الذهبية وإذ به يرسلها بمهارة فتسكن الشباك وسط قرع الطبول القاصف.

في كرة مرتدة انفرد لاعب صافور بجميل البنهاوي وحينما اقترب منه اضطرب وطالت الكرة منه ولكنها كانت ضعيفة جدا وتسير على الأرض. ولكن المفاجأة أنها دخلت من بين رجلي جميل البنهاوي.

وكلما سدد لاعبو صافور الكرة شديدة القوة ومرتفعة صدها جميل البنهاوي بمهارة ولكنهم كلموا سددوا الكرة أرضية تدخل بسهولة.

عرف لاعبو صافور ذلك عن هذا الحارس الغريب فبدأوا يلعبون الكرة على الأرض ويسددونها له بهدوء تام فتدخل شباكه فورا، وسط غضب هائج من مشجعي فريق الجواشنة ولاعبيهم وفرحة غامرة وضحكات مرتفعة من مشجعي فريق صافور ولاعبيهم، وهكذا حتى انتهت المباراة بهزيمة ساحقة لم يعرفها فريق قرية الجواشنة من قبل ولا من بعد، فقد انتهت المباراة ١٠ /٣ لصالح فريق صافور.

أنا عندي أولاد

كان يعمل في وظيفة مرموقة بإحدى شركات البترول وقد جمع ثروة طائلة ومنحه الله المال والبنين حيث أنجب ثلاثة أولاد تباعا، وبدا مركزه المالي في تحسن لا ينقطع وبدأ يستثمر هذا المال في شراء ما يعن له.

وكان صديق عمره كلما سأله أن يتبرع بجزء من هذا المال لزواج يتيمات أو لبعض الفقراء كان جوابه الدائم: أنا عندي أولاد وهم أولى بهذا المال.

كانت إمبراطوريته المالية كبيرة فعلا. وبدا طائر السعادة والرضا غير مفارق له، ولكن الزمن لا يترك شيئا على حاله. ففي شرخ الشباب وبعد إنجابها ثلاثة أولاد متتابعين ماتت زوجته فجأة. ولكنه لم يتزوج حرصا على أولاده ونهض هو بكل مهام البيت ورضي بما هو فيه من غنى ظاهر وأولاد يكبرون. ولكن فجأة ودون سابق إنذار غادر صاحبنا الحياة تاركا ثروة طائلة وثلاثة أولاد في عمر الزهور كان الأكبر عمره ستة عشر عاما والأوسط خمسة عشر عاما والأصغر أربعة عشر عاما.

تليفون الابن الأكبر يرن، ولكنه لا يرد، فقد كان في النادي في ذلك اليوم حين وفاة والده فجأة، وبعد أن تم تجهيز الراحل للدفن، وفي الساعة الثانية ظهرا كان قد انتهى من تمارينه الرياضية ففتح الموبايل فوجد اتصالات كثيرة جدا من أخويه، فتعجب من ذلك وما هي إلا لحظة أخرى

حتى رن الموبايل وحينما فتحه كان صوت أخيه يخبره بوفاة الوالد وأنهم في طريقهم للمقابر بمدينة ٦ أكتوبر. كانت الأسرة تسكن بحي مصر الجديدة الراقي وقد انطلقت سيارة الموتى بجثة الأب وها هم في الطريق إلى مقابر الأسرة.

كان الابن الأكبر ينتظر بسيارته في الطريق الذي ستمر عليه أسرته وهم ذاهبون لتشييع جثمان والده إلى مثواه الأخير، وكان منخرطا في بكاء متصل من أجل وفاة هذا الأب الغالي الذي ترك لهم ثروة طائلة وحرم نفسه من متع الحياة بعد وفاة أمهم، ورصد كل حياته وراحته من أجل سعادتهم.

مر موكب الدفن به فانضم بسيارته الفاخرة إلى الموكب وقد بدت قطرات من الدموع وهي تنحدر من عينيه.

وصل موكب الدفن إلى مقابر الأسرة، وتم إنزال الجثة من سيارة نقل الموتى، حيث استلمها أربعة رجال من السيارة وأنزلوها إلى لحدها وقام الحانوتي بوضعها في المكان المحدد وقد شمت الأنوف غبار الموتى، وانتحى المعزون تحت أشجار المقابر الحزينة، وخرج الحانوتي وبدأ يهيل التراب بفأسه على مدخل القبر في حين كان الابن الأكبر في حالة حزن تام لهذا الفراق الصعب ولكن بدأت حالة التململ تظهر عليه، وقبل أن يتم إغلاق القبر على أبيه الراحل الذي ترك لهم ثروة طائلة جدا، قال بعصبية بالغة: عايزين نغيّر المود دا، وأعطى العمال الذين نهضوا بفعل الدفن مبلغا من المال ثم ركب سيارته الفاخرة وقد تبعه أخواه تاركين الحانوتي يتم إغلاق

القبر، وسط دهشة الجمع القليل جدا الذي حضر مراسم الدفن.

بعد ثلاثة أسابيع فقط سمع الجيران أصواتهم المرتفعة وهم في عراك شديد مع بعضهم بسبب الميراث. لقد بدا واضحا لهؤلاء الجيران أن هؤلاء الإخوة سيحطم بعضهم بعضا، ولذا تدخلوا بكل قوة حتى ينفض هذا العراك.

وبدأ حصر التركة وتوزيعها على الأولاد الثلاثة الذين لم يتجاوز أكبرهم ستة عشر عاما. وبعد أخذ ورد بدا تقسيم التركة سهلا في كل شئ: الأموال الضخمة في البنوك بدأ حصرها وتوزيعها بالعدل، والأراضي تم الاتفاق حولها أيضا، والمحال التجارية لم يثر حولها خلاف، ولكن بقيت المشكلة الضخمة في توزيع العمارتين الشاهقتين على هؤلاء الأولاد الثلاثة، وبعد أخذ ورد وكلام كثير حول عملية القسمة وتوزيعها بدت الصعوبة الكبيرة في هذا الأمر.

وفجأة أطلق الابن الأصغر لسانه في حنق تام وسب أباه مستمطرا عليه اللعنات بسبب هذا الوضع مبررا لعناته لأبيه الراحل بأنه أخطأ خطأ فادحا، لأنه بنى عمارتين فقط وهم ثلاثة أولاد لماذا إذن لم يبن الثالثة حتى يجنبنا هذا الخصام؟!

في المكتب

جاء رفيقي في العمل إلى مكتبي يعزيني في وفاة أخي حميد، ويعتذر لأنه لم يحضر الجنازة، ثم أبدى لي رغبته في أن يعرف شيئا عن حميد، وأن يعرف كيفية رحيله.

فقلت له: حين رزق أبي بطفل فرح فرحا شديدا، وأسماه حميد كي يكون عوضا عن ابنه حميد الذي مات فجأة وهو في عامه السادس.

كان حميد الثاني هذا يشبه إلى حد كبير أخاه حميد الراحل منذ أعوام، والذي لم يستطع أبي أن ينساه لحظة واحدة، ولا أمي أيضا.

بدت حالة من الرضا على وجه الأبوين وكأن حميد الراحل بعث مرة أخرى في حميد الثاني.

وكان حميد الثاني ذا وجه حسن ووجهه خير على الأسرة فقد بدت حالة من التحسن المادي الواضح منذ مجيئه، وكان هذا التحسن ناتجا من عمل الأب المتواصل في ضم محصول الأرز في الوسية مع غيره من رجال قريتنا الفقيرة، لأنه على الرغم من امتلاك الأب لخمسة أفدنة كاملة فقد كان هناك نوع من الرفاهية أثناء المحصول، وزادت هذه الرفاهية بسبب انخراط الأب التام في العمل مع رفاقه من رجال القرية حيث يخرجون جميعا بعد صلاة الفجر بمناجلهم، ويظل عملهم متواصلا حتى أذان الظهر.

لكن صحة حميد الثاني ذي الوسامة الظاهرة والنبل الواضح لم تكن

على ما يرام، فقد مشى رفاقه في السن بسهولة ويسر حينما جاء أوان مشيهم، ولكن حميد بدا متعثرا تماما في وقوفه فضلا عن مشيه، استسلمت الأسرة لهذا الأمر فهو قدر الله من وجهة نظرها، ولكن الأم قالت بحسم إن حميد سيسير إن شاء الله إذا تابعنا حالته عند طبيب متخصص في العظام، ولن يستطيع السير إذا ترك على حالته.

على الفور أخذ الوالد ابنه الصغير مصطحبا معه أمه، وتم الكشف عليه وتحسنت حالته تماما بعد فترة وجيزة، وأصبح يسير ويلعب مثل أقرانه.

شب حميد وسط إخوته وأخواته في بيتنا الريفي الواسع، ودخل المدرسة ولكنه لم يبد تفوقا دراسيا مثل أخيه الأكبر الذي كان مضرب الأمثال في التفوق.

بعد حصوله على دبلوم التجارة، دخل التجنيد لمدة عامين، وأثناء وجوده في المعسكر ماتت أمي وكانت أمنيتها أن تراه قبل رحيلها ولكن القدر لم ييسر أبدا هذا اللقاء.

بعد الانتهاء من فترة التجنيد وقع حميد في حب فتاة مليحة من فتيات قريتنا بادلته حبا بحب، ولكن الأب كان مستسلما لرغبة أحد أبنائه الذي تزوج من حبيبة له في القرية ولها أخت واحدة تصغرها أرادت أن يتزوجها حميد فنهض زوجها بتلك المهمة على أكمل وجه واستخدم سلطة أبيه حتى يوافق حميد.

رفض حميد تماما هذا العرض وتشبث بحبيبته. ولكن تحت ضغط أبيه وتصميمه وتصميم أخيه وزوجته وافق حميد على هذه الخطوبة. وكان حميد في هذه الآونة يذهب كل يوم صباحا مع الكثير من رفاقه إلى العاشر من رمضان لكي يعمل في مجال المعمار في هذه المدينة. مع أنفار الخلاط يذهب قبل صلاة الفجر ويعود بعد صلاة العشاء في مقابل أجر يومي قد يصل إلى خمسين جنيها.

وفجأة وهو منهمك في عمله نهارا سقط على رأسه عمود حديدي أفقده الوعي تماما في اللحظة نفسها وذهب به صاحب الخلاط الذي كان في الوقت نفسه ابن أخت حميد إلى مستشفى عين شمس التخصصي.

كانت حالة حميد صعبة جدا فقد ظل أربعين يوما وهو بين الموت والحياة ولكن في النهاية لطف الله به، واسترد عافيته ولكن توازنه العقلي تأثر تأثرا بالغا.

وتم زواج حميد وأنجب ابنة جميلة بعدها حصل على وظيفة في المجلس المحلي لمدينته، ثم أنجب ولدا رائعا، كان هذا الولد قرة عين جده، وقرة عين أبيه وأمه.

لكم فرح حميد بابنته وابنه، وفي يوم من الأيام ذهب بحمارته إلى حقله، وقرب الضحى عاد من الحقل ليفاجأ بمن يقول له: إن ابنه قد مات، بدا الحزن الشديد والدهشة الفائقة على وجه حميد متسائلا عن كيفية موت ابنه الذي تركه في الصباح الباكر وهو في صحة جيدة ويضحك له.

وكان الجد في هم مقيم لوفاة حفيده الرائع فجأة، ولكن مرت الأيام، واستطاع الجميع أن يمسك طرفا من الصبر يعتصم به، حتى مرت الأيام في تؤدة، وكان الجميع يعزون الأب بأن حميد ما زال شابا وإن شاء الله يعوضه الله خيرا ويرزقه الكثير من البنين. ولكنه أنجب بعدها مباشرة طفلة أخرى جميلة جدا.

على الرغم من وظيفة حميد المرموقة من أهل القرية جميعا في مجلس المدينة فإنه كان دائما ما يذهب إلى العمل على الخلاط يوما أو يومين في الأسبوع حتى يحسن دخل أسرته.

وفي ليلة جاءه شريك ابن أخته على الخلاط وطلب منه الاستعداد غدا من أجل العمل على الخلاط في مدينة العاشر من رمضان، ولكن حميد رفض، ولكن رفضه لم يزد هذا الفتى إلا إلحاحا عليه وفي النهاية وافق ممتعضا.

في العاشرة صباحا وحين لمة الأنفار من أجل الإفطار كانت حنفية المياه مفتوحة على لبشة من الحديد الغزير الذي ستقوم عليه البناية الشاهقة، ذهب حميد لإغلاق هذه الحنفية فتدحرج جسده وسقط في المنحدر الذي فيه أسياخ الحديد مشرعة، ليدخل سيخ من الحديد القاسي في فخذه وينفذ إلى أمعائه فيخترقها خرقا بسيطا جدا، أصيب حميد بحالة إغماء تام وعلى الفور تم نقله إلى إحدى المستشفيات التي خيطت الجرح وعملت أشعة له، ولكن الأطباء لم يلاحظوا الخرق في الأمعاء.

ظل حميد مريضا لا تبدو عليه أية أمارة من أمارات التحسن،

وحرارته لا تنخفض مهما أخذ من أدوية، وذهب خلال أسبوع واحد إلى أطباء كثيرين جدا، وصرف أموالا طائلة، وكل طبيب يذهب إليه يرى الأشعة ولا يكتشف الثقب فيها، ويعطيه أدوية مختلفة.

جاءني تليفون من أبي يطلب مني سرعة الحضور لأن حميد مريض، وفي الوقت نفسه طلب من أخي سرعة الحضور، حينما ذهبت إلى قريتي كان حميد في إحدى المشتشفيات الخاصة، حيث قرر الأطباء إجراء عملية له وكانت الأموال المطلوبة كبيرة جدا، ورفضوا دخول حميد المستشفى حتى يدفع أولا.

كنت في طريق العودة إلى قريتي حينما جاءني تليفون يخبرني بهذه الأخبار وعلى الفور طلبت من أخي أن يذهب بالتليفون إلى طبيب المستشفى وكلمته أن يدخل حميد لحين وصولي وسيتم دفع المبلغ المطلوب.

حين ذهبت وجدت رجالا من أسرتي مع حميد وبعض نساء الأسرة فيهن زوجته. كان حميد يلبس جلبابا أبيض نظيفا، ويغطي رأسه بشال أبيض نظيف، وحينما رآني قال: أهلا يا دكتور.

اطمأن قلبي حينما رأيته يتكلم بوضوح ولا تبدو عليه أمارت الألم الشديد كما كنت أظن. وقعت الحادثة يوم السبت ونحن اليوم في يوم الخميس.

أشار أحد رجال أسرتي من ذوي المعرفة بأن نذهب إلى مستشفى خاص غير هذه، فانتقلنا جميعا إلى المستشفى الخاص، وعلى الفور تم إجراء

تحاليل طبية له وأشعة. وكان القرار بأنه لابد من إجراء عملية فورا لأن هناك ثقبا يتسع في الأمعاء والحالة خطيرة جدا. على الفور وافقت بإجراء العملية وتم دفع المبلغ المطلوب لهم.

تم حجز حميد في المستشفى وتجهيزه للعملية التي من المقرر أن تجرى له يوم السبت القادم.

لقد بدا طائر الموت ذو اللون الرمادي يطل بمنقاره القاسي لأخي حميد. ولكن الأطباء في المستشفى الخاص كانوا مطمئنين لنا جدا، وأن هذه العملية ناجحة بإذن الله وسيقوم حميد منها على خير.

عدنا جميعا إلى القرية تاركين حميد في المستشفى ليتم تجهيزه للعملية، ولكن أحد إخوتي ظل في المستشفى تحسبا لأي طلب قد يطلب، وقد استعد بسجائره التي يحبها كثيرا لكي تكون هذه السجائر رفيقته طوال الليل الطويل.

حين عدنا إلى القرية وجدنا معظم أهل القرية في انتظارنا وقد جاء الكثيرون منهم إلى البيت كي يطمئنوا على حميد وألسنتهم تلهج بالدعاء له، وقلوبهم ضارعة لرب الكون من أجل عودته.

أما ابنتا حميد فكانتا تلعبان في فناء بيتنا الريفي الواسع، بغير إدراك للمصير الذي ينتظر أباهما.

ذهب معظم أهل القرية صباح السبت إلى المستشفى الخاص لحضور عملية حميد والاطمئنان عليه، وبعد ساعات كثيرة في غرفة العمليات خرج

الطبيب، وهو يطمئننا جميعا بنجاح العملية، وما هي إلا أيام وسيعود حميد إلى بيته. كان الفرح غامرا بهذا التصريح من الطبيب الشهير الذي قام بعمل العملية حميد.

كنا كل يوم نذهب لحميد منذ الصباح ونعود في المساء ندخل له ساعة حين يتم أمر التصريح بالدخول، وقد قام الطبيب بعمل عملية له يستطيع الحصول على غذاء خاص به عن طريق أنبوب وليس عن طريق الفم. ولقد ظل حميد أربعين يوما في المستشفى الخاص وكل يوم يتم دفع مبالغ ضخمة، ولا يبدو أمل رجوعه قريبا وإن كان الطبيب يطمئننا من آن لآخر.

كانت العناية المركزة التي ظل فيها حميد بها أسرّة مرضى كثيرة، وكل مرة يأتي أحد المرضى ويظل أياما معدودة ويخرج. أما سرير حميد فقد ظل غير فارغ لمدة طويلة جدا، والمرضى يجيئون ويذهبون و حميد جاء ولم يخرج.

كل يوم كان حميد يحتاج إلى كيسين دم وكيس بلازما، وقد أذاع ميكروفون القرية عن حاجة حميد لنقل دم، فتبرع معظم أهل القرية بدمائهم.

في ليلة من الليالي رأى حميد فجأة ثلاثة شياطين يمسكون ذراعه فهتف على الفور: أنا تبع سيدنا محمد، ففر الشياطين الثلاثة مذعورين منه بلا رجعة.

حينما مر عليه الطبيب الشهير ومعه مساعده قبل الفجر كان حميد يعاني جدا وكان مغمض العين، فظنه الطبيب نائما فقال لمساعده: يبدو أننا عملنا هذه العملية خطأ.

في الزيارة قال حميد ذلك لزوجته وأخيه فكلم أخوه الطبيب في ذلك فأكد له الطبيب أن العملية سليمة وليس بها أي خطأ، وأن حميدا سيخرج من المستشفى قريبا.

كان الوالد يعرف في قرارة نفسه أن حميدا لن يعود، وحينما أكون معه أطمئنه وهو يصدق كلامي ويبدو منتظرا عودته، ولكنه في وسط الكلام يقول فجأة ما ينم عن عدم ثقته في عودة حميد.

أخيرا بعد أربعين يوما سمح الطبيب المعالج بعودة حميد إلى بيته على أن تكون رعايته الطبية في غاية الصرامة.

لكم كان فرح أهل القرية جميعا بعودة حميد إلى بيته، وقد وقع في خاطري أن حالة حميد تحسنت فعلا، فانخرطت في عملي في القاهرة، ولكنني رأيت فيما يرى النائم أنني أصعد مقابر القرية، حيث تناثر سكانها في سكون حول مقابر ذويهم، ورأيتني أذهب إلى مقابر عائلتنا وأقف أمامها في خشوع.

لأول مرة يقع في خاطري أن حميدا في خطر فعلا، اتصل أخي وأخبرني أن حميدا في مستشفى الجامعة فذهبت إليه. حينما رآني نظر إليّ بعينين غائرتين وجسم نحيل وعدم قدرة على الكلام وقد أشار لي بيده.

كان الإخوة جميعا في مستشفى الجامعة بجانب حميد، وحينما مركبير أطباء الجامعة كان حميد يكاد ينازع طائر الموت الرمادي بمنقاره القاسي الذي يجاهد بكل قوة أن ينشب هذا المنقار في صدره، ولكن الطبيب

الكبير جدا طمأننا بثقة كبيرة وقال هذا لاشئ أمام ما رأيناه من حالات نجاها الله تعالى على أيدينا. اطمئنوا.

ولكنه بعد خروجه من القاعة بنصف ساعة كان حميد قد رحل إلى بعيد.

وهنا فرت دمعتان كبيرتان مني على الرغم من محاولتي القوية من أجل إمساكهما مالبثت أن جاوبتهما دمعتان من عين رفيقي في المكتب، فأخرج كل منا منديله، ومسح هاتين الدمعتين، وقلنا في نفس واحد: يرحمك الله يا حميد، وأسكنك فسيح جناته.

غير متزوجة

في لقاء تليفزيوني من لقاءاته الكثيرة كن يبدو ساحرا في كلماته، وساحرا في شخصيته، وكانت هي في آخر الليل بعد أن أصابها أرق غريب وقنوط من حياتها التي ليس فيها حبيب تمسك بالريموت كنترول وتقلب في قنوات التليفزيون بلا مبالاة، وفجأة شاهدته وأحست برعشة الحب تسري في جسمها وهي تشاهده يتكلم بهذا التدفق وبهذه الألمعية.

أحست أنها تعرفه، انتظرت حتى كتبت الشاشة اسمه ولقبه العلمي فأحست أن هاتفا يهتف في أعماقها بأن هذا الاسم تعرفه من فترة طويلة جدا.

كان اسمه النادر مطابقا لاسم مدرس لها في المرحلة الابتدائية درس لها فترة بسيطة جدا، ولكنه ترك بصمة في قلبها، وكان اسمه النادر من ملامح هذه البصمة.

بعد انتهاء البرنامج أرسلت له طلب صداقة على الفيس بوك، وأرسلت له رسالة تعرفه باهتمامها بالموضوع الذي كان يتكلم فيه في اللقاء التليفزيوني.على الفور وافق على صداقتها، فأرسلت له رسالة تشكره على قبول الصداقة، وتكلما على الفيس وأرسل لها رقم هاتفه وأرسلت له رقم هاتفها.

حينما دخل على صفحتها وجدها قد كتبت أمام حالتها الاجتماعية كلمة غير متزوجة. كان هو يعيش حياة زوجية قلقة جدا، فقد كان مختلفا

تماما عن زوجته ولا يجد نفسه معها على الإطلاق. وكان يود دائما أن يجد له شريكة لحياته تعوضه عن حياته التعيسة.

بدت في ملامحها عادية ولكن لها شعر أسود فاحم غزير وينسدل على كتفيها بسحر جذبه بشدة فائقة. غابت عنه يوما كاملا لم يرها على الفيس فأرسل لها رسالة يطمئن عليها.

أخبرته بأنها كانت مريضة، وأن والدتها وقفت إلى جانبها في مرضها، سألها وأين كان أولادك؟ قالت له إنها غير متزوجة.

على الفور دعاها لندوة مهمة جدا يشارك فيها وافقت على الفور، لكم أحس بلهفتها على لقائه وشعر هو بلهفة في قلبه على لقائها.

كانت الندوة في قاعة واسعة مكيفة الهواء وذات كراس مريحة جدا، وقد جلس صاحبنا مع المشاركين في الندوة أمام الجمهور الكثيف. وجعل يقلب بصره عبر القاعة الواسعة من وجه لوجه علّه يراها. وكانت صورتها على الفيس بوك منطبعة في ذهنه وجعل يطابق صورتها على وجوه الحاضرات ولكن دون جدوى. لكم أحس بغربة حقيقية رغم تألقه الفائق في هذه الندوة.

كان هو أول المتحدثين، لكم ساءه ألا تسمعه وهو يتكلم، ولكن في منتصف كلمته تقريبا وجد فتاة فائقة الجمال والجاذبية ترتدي بلوزة نبيتي بنصف كم على بنطلون جينز وقد ظهر نصف صدرها الأبيض اللامع، فعرفها على الفور كانت هي صاحبته، لكم وجد فرقا شاسعا بين صورتها

العادية على الفيس وصورها الواقعية التي تهتف بآيات الجمال اللافت.

سرت فيه رعشة جديدة انتفض لها جسده، وأصبح يتكلم وكأن روحا ملهمة قد تلبسته فكان فائقا في مداخلته جذب إليه جميع الأنظار وبخاصة نظر فاتنته الفائقة.

بعد انتهاء الندوة اجتمع إليه الجمهور لمناقشته وأخذ الصور معه وتبادل أرقام التليفونات. لكن فاتنته كانت تقف مع كوكبة من الجمهور الذي يعرفها تحادثهم.

فجأة عرف أن المال الذي في جيبه لا يستطيع أن ينهض بدعوتها للقاء حالم على نهر النيل، وقد استقر في ذهنه أنها قد جاءت وقد رتبت في نفسها لمثل هذا اللقاء.

سلم عليها وهي وسط جمهورها ثم انسل مع بعض الرفاق إلى كافيتريا قريبة من الندوة، ثم اتصل بها بعد ذلك ليخبرها بأنه وجدها منهمكة في الحديث مع معارفها وكره أن يأخذها منهم رغم رغبته في ذلك . أبدت له رغبتها في لقاء قريب آخر.

واتفقا على موعد. لقد بدأ طائر الحب ذو الأجنحة المرفرفة يظهر في الأفق. في الليلة التي سبقت الموعد أرسلت له رسالة محددة، وطلبت الإجابة على الفور. وهي: هل أنت متزوج وعندك أولاد؟

أجاب نعم، ولكن أعيش حياة تعيسة جدا مع زوجتي.

بدا غضبها حادا وكأن قد أسقط في يدها. سألته ثانية عندك أولاد؟

نعم.

قالت: لقد كنت في سعادة غامرة ولكني صحوت الآن على كابوس

قال: لماذا؟

متزوج وعندك أولاد، عموما أنا لن أتزوج رجلا متزوجا وعنده أولاد

قال: ممكن فرصة

قالت: لا

تركها متمنيا لها السعادة ولكنه رجع إليها قائلا: أود لقاءك

قالت: ربنا يسهل

حدد معها موعدا على شاطئ النيل الخالد.

التقيا على سفينة علاء الدين، لكم كانت ليلة ساحرة فقد جاءت فتاة ممشوقة القوام ذات وجه أبيض مدور، وقد عقصت شعرها الأسود الفاحم الغزيرإلى الوراء.

سلم عليها فأحس بحديث حميم بين يديهما اللتين نسيتا بعضهما في عناق حار حميم.

كم كان باهرا لها في شخصيته ووسامته وألمعيته، بدا طائر الحب محلقا في سماء القاهرة حتى استقر تحليقه فوق رأسيهما.

أخبرها عن ميله الشديد لها وعن حبه الذي ولد كبيرا عملاقا حينما رآها وأخبرته عن حبها أيضا الذي ولد كبيرا وعملاقا حينما رأته.

اتفقا على إتمام الزواج وعلى أن يقابل أمها الأربعاء القادم من أجل الزواج، ثم وقفا سويا على حافة السفينة ينظران إلى ماء النيل وأنوار القاهرة الفوسفورية، ثم احتضنها وقد ذابت تماما في أحضانه.

قالت له حينما أفاقا من حضنهما اللاهب أود أن يستمر حبك دائما وأن يظل حبك لاهبا لي كما أنا ورغم عيوبي هذا هو الحب الحقيقي، فنظر بعمق في عينيها وصب في نفسها اطمئنانا كبيرا.

حينما عاد إلى البيت رأى نفسه في حديقة غنّاء تمسك يده في حنان بالغ وهو يمسك يدها في حنان بالغ كانت هذه الحديقة تطل على البحر، وقد تمادت السفن الشراعية البيضاء على أمواجه الهادئة، وفي الأفق البعيد عند اجتماع السماء بالبحر كانت نورسة تنقر الماء في حين كان هو يلمس وجه حبيبته الفاتنة، وقعت عينه فجأة على زهرة مكتملة لها سحر فائق، فابتسم لها ورقصت الزهرة الفاتنة على إيقاع قلبيهما.

ذابا في عناق حميم تفتحت به نوافذ مغلقة على عالم سماوي ساحر، ولكن فجأة رأى ثعبانا يعيث في الزهرة الفاتنة فسادا فاستيقظ مقبوض القلب.

هاتفته بعد هذا اللقاء وطلبت منه أن يستمع لها فقد فكرت كثيرا وتريده أن يعرف كل شئ عنها حتى تنبني العلاقة على أسس من الصراحة التامة.

استمرت المكالمة ساعتين متصلتين. فقد كان على صدرها هم ثقيل جدا وتود إزاحته.

قالت: أود أن أصارحك بماضيّ. قال لها: تفضلي.

قالت: لقد أحببت في حياتي مرتين من قبل، وقد انتهى هذا الحب تماما، ولكني أود ان تعرفه.

في المرة الأولى تعرفت على شاب له محل في منطقتي قريبا من بيتي فكنت أذهب إلى المحل وأشتري منه بعض الأطعمة الجاهزة فاستلطفني واستلطفته وخطبني ووافقت، ولكنه كان غيورا جدا يتدخل في كل صغيرة وكبيرة من أمري، ويريد أن يفرض عليّ طريقة معينة في اللبس والكلام والحركة، فأحسست بأنه يكاد يخنقني فانتهت الخطبة.

قال لها : هل حدثت بينكما علاقة عميقة ؟ قالت لا أبدا، إنه لم يلمسني على الإطلاق. أحس بارتياح تام وشكر الله سبحانه وتعالى من أعماق قلبه.

قال لها: والعلاقة الثانية؟

قالت أخبرك حالا: هذه هي العلاقة العميقة. فانتفض قلبه وانتظر أن يسمع منها ما يزلزل. قالت: تعرفت من على الفيس على شاعر مغمور عرفت منه أنه قد انفصل مرتين من قبل وأنه قد تعود على الزواج ويريد أن يتزوج وأبدى لي رغبته في الارتباط بي وتقابلنا فأحسست بارتياح شديد له وأحببته حبا كبيرا ورغبت في إتمام الزواج منه. ولكن المشكلة كانت في ظروفه المادية المتعثرة، وحاولنا بكل قوة البحث عن شقة نتزوج فيها وكلما ذهبنا سويا لرؤية شقة لم يكن يتم السماح لنا سويا باستئجارها لأننا غير مرتبطين.

وكانت المشكلة أنه لو تقدم لأمي فسوف يتم رفضه لإمكانياته المادية الضحلة. فاتفق معي على أن نجهز كل شئ على أن يدفع كل منا نصف التكاليف فوافقت.

ولكن الأمور متعثرة ولدينا رغبة قوية في الارتباط فقال لي: نتزوج عرفيا الآن وبعد عام نكون قد وفرنا التكاليف فأتقدم لوالدتك لكي توافق ونتزوج في شقتي الصغيرة عرفيا.

وكانت شقته صغيرة جدا لا تصلح للزواج أبدا إذا تقدم لي وقابل أمي. جعلت أقلب الأمر في رأسي، ولكني وافقت في النهاية بسبب رغبتي الشديدة في الزواج فقد كنت قد تجاوزت الثلاثين عاما. حينما ذهبت معه إلى شقته الصغيرة جدا جاء صاحب البيت ومنعنا من الدخول وحينما أطلعه على عقد الزواج العرفي سمح لنا بالدخول.

كان صاحبنا يستمع لذلك وقد هبطت سحابة من التبلد التام على قلبه واستمرت هي في حكي حكاية حبها الثاني، قالت: لقد كان إنسانا سيئا جدا استغلني وأخذ أموالي وضربني بعنف حتى سال الدم من وجهي بسبب ضربته القاسية كرهته تماما ولكنني لم أبين له، وكنت أعرف مواعيد عمله ومعي مفتاح للشقة أعطاه لي كي أنظفها وأصنع طعاما حينما نلتقي فيها، فذهبت للشقة وبحثت عن ورقة الزواج العرفي التي معه وبعد بحث طويل عنها وجدتها في جيب جاكتته وأخذتها، وكلمته في اليوم الثاني بطريقة عادية جدا، وبعد ذلك انقطعت تماما عنه. وحينما بحث عن هذه الورقة لم يجدها واتصل بي ليعتذر عن ضربه لي ويريد عودة العلاقة بيننا ولكنني رفضت تماما.

قال لها: هل حدث اللقاء الحميم بينكما كثيرا؟

قالت: أبدا فقط أربع مرات. وأنا أكرهه ولو قابلته في الشارع سأدير وجهي عنه ولن أسلم عليه. والآن لك مطلق الاختيار تستطيع أن تنهي العلاقة وتستطيع أن تستمر.

كان من الممكن عدم إطلاعك على ذلك ولكنك أكرم عندي من أن تخدع. أجاب على الفور بموافقته التامة على تكملة العلاقة معها ففرحت كثيرا. لقد دار في ذهنه صدقها وأنها كان من الممكن أن تخبئ عنه فلا يعرف أبدا فليحمد لها على كل حال صراحتها.

طلب منها تأكيد ميعاد اللقاء مع أمها، فشكرته من أعماق قلبها.

في اليوم التالي هاتفته واعتذرت له عن عدم إتمام العلاقة لأنها فكرت مع أمها بعمق ورأت أنها لن تقبل أن تكون زوجة ثانية كما أنها لن تقبل بظروفه المادية الصعبة من وجهة نظرها فشكرها متمنيا لها السعادة الكاملة في حياتها المستقبلية وقد ارتاح الطرفان من الاستمرار في علاقة قلقة. وظل مكتوبا أمام اسمها على الفيس غير متزوجة.

علي البطل

بدأت كتل الضباب تغطي القرية الوادعة، وكانت مصابيح الأعمدة الكهربائية التي دخلت حديثا قريتنا ينفذ ضوؤها بصعوبة عبر الضباب المتكاثف حولها، وذهب أكثر الفلاحين إلى مضاجعهم بعد يوم حافل بالعمل.

وفجأة شقت صرخة هائلة حرّى سكون القرية الناعس مالبثت أن جاوبتها صرخات هائلة، فبدا الذعر يعتلي الوجوه وبدأ الكل يخرج إلى شارع القرية الواسع، وما لبث الخبر أن شاع في أجواء القرية الصغيرة فقد طعن المعلم حسن في رقبته طعنة نافذة أودت بحياته.

كان المعلم حسن رجلا مكتمل الرجولة طويلا جسيما ذا نظافة واضحة في الجسم والثوب، ويبدو مظهره مختلفا عن بقية الفلاحين الذين لا يعتني معظمهم بمظهره.

وقد جاء المعلم حسن هو وزوجته الطيبة وأولاده الصغار وأخوه الذي جاوز عتبات الصبا بقليل إلى قريتنا من محافظة ساحلية، واستأجر بيتا ريفيا من أحد أبناء القرية وبدأ يمارس نشاطه التجاري في جمع الألبان من الفلاحين وبيعها، وكانت زوجته محبوبة جدا من نساء القرية، وأطفالها لهم معاملة خاصة من أبناء القرية.

يبدو أن المعلم حسن كان عليه بعض المال لعلي البطل وهو شاب

من قرية بعيدة تعود أن يجئ للمعلم حسن، وبدا أن هناك خلافا حادا بينهما حول هذا المال.

جاء على البطل ومعه رفيق له إلى القرية مساء وقد بيت النية على قتل المعلم حسن في بيته. أحضر معه مطواة حادة، وحينما مر هو ورفيقه بالقرب من بيت المعلم حسن أمسك بطوبة متصلبة ورمى بها مصباح الإنارة فانطفأ وأصبح الشارع شديد الظلام وكثيف الضباب.

طرق الباب ففتح له المعلم حسن وأدخله الحجرة الواسعة وقدم له التحية، وحينما طالبه على البطل بالمال الذي عليه الخلاف أنكر المعلم حسن أن يكون هذا المال من حقه، نظر على البطل إلى رفيقه وإذ برفيقه يضرب المصباح الذي في الحجرة وعلى الفور جاءت طعنة نافذة في رقبة المعلم حسن المتين البنية فصرخ صرخة مدوية ولم ير في الظلام قاتله وحاول الإمساك به دون جدوى فخرج والدماء تسيل من رقبته إلى الجرن الذي أمام بيته وحمل حجرا ضخما وأراد أن يلحق بقاتله ولكنه غلب فوقع وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة في الجرن.

كانت الصرخة قد أيقظت أهل القرية جميعا فجاءوا إلى مصدرها وامتلأ الجرن الواسع برجال القرية ونسائها وأطفالها وكان معظم من جاء يسير حافيا فظهرت دماء المعلم حسن على أقدامهم.

أما رفيق على البطل فقد انسل عبر الحقول منفردا ولم يلحق به أحد. في حين كان يحمل علي البطل المطواة التي قتل بها المعلم حسن في يده، وقد أطلق ساقيه للريح في سرعة جنونية لا شبيه لها.

ولكنه فوجئ بأحد أبناء القرية المشهورين بالشهامة يقابله وجها لوجه على أطراف القرية البعيدة وحينما سمع الصراخ في القرية والسرعة الهائلة التي يجري بها هذا الشبح ورأى الكثيرين من أبناء القرية يجرون خلفه في جماعات يتلو بعضها بعضا طلب منه على الفور تسليم نفسه له، فهدده على البطل بأن معه مطواة فأخرج مطواة لامعة بسرعة فائقة وهدده بمواجهته بها إذا لم يلقها الآن في المصرف بل إنه هدده بضربه بمسدسه فورا إن لم يلق المطواة، وكان صوت الفلاحين وجماعاتهم قد بدأ يقترب منهما على الفور ألقى علي البطل المطواة في المصرف وعاد به صاحبنا إلى القرية، فأمسك به الفلاحون، وساروا به إلى بيت العمدة الذي أبلغ المركز بهذه الحادثة.

كان الفلاحون يحيطون بعلي البطل من كل جانب ويضربونه ضربات موجعة وهو يتلقى الضربات في استسلام لمصير مجهول، وقد زاغت عيناه.

تم حبسه في قاعة التليفون عند العمدة وجاء المأمور ومعه القوات الخاصة. كان محسن أخو المعلم حسن المراهق يصرخ صرخات موجعة أبكت الناس على أخيه النائم في الجرن وقد فارق الحياة.

أمسك المأمور بسكين حاد وطلب هذا الأخ وقال له: خذ هذه السكين واقتل قاتل أخيك. وسنسجل القضية بأنك قتلت قاتل أخيك وهذا لن يضر بك كثيرا، ولكن الأخ المراهق بعد أن أمسك السكين الحاد نظر إلى عين علي البطل فصرخ وولول ولم يقدر أن يوجه الطعنة لقاتل أخيه.

على الفور أمر المأمور قواته بحمل هذا المجرم إلى البوكس والانطلاق به إلى المركز.

عرفت أم حسين مرارة الحزن على فراق زوجها في بلد غير بلدهم وبدت مسحة الحزن الشاحب تعلو بنات المعلم حسن وأولاده الصغار وعرفت الفلاحات الحزن الممض بسبب حزن أم حسين.

وبعد فترة بسيطة غادرت أم حسين قريتنا، وسمعنا أن علي البطل حكم عليه بالسجن سبعة أعوام متصلة.

بعد سنوات قلائل جاء المعلم محسن ومعه زوجة شابة فائقة الجمال والنظافة واستأجر نفس البيت الذي استأجره أخوه من قبل، وبدأ يمارس ما كان يمارسه أخوه المعلم حسن رحمه الله من جمع الألبان من الفلاحات والتجارة فيها.

وأنجب ابنا حسن السمت أطلق عليه حسن على اسم أخيه الراحل، بدأ حسن الصغير يكبر وهو محاط بجو من الحنان البالغ من أبيه وأمه، وحينما وصل إلى عمر ست سنوات ذهب مع أبيه وأمه إلى المركز لشراء بعض الحاجات بمناسبة العيد الصغير وانهمك أبوه وأمه في الشراء وكان هو يلعب امام المحل في انتظار انتهاء أبيه وأمه من الشراء والبيع وفجأة جاءت سيارة مسرعة وقضت عليه في اللحظة نفسها.

لكم كان حزن القرية كبيرا بسبب ما أصاب هذا الطفل النبيل وبسبب ما تعرض له عمه المعلم حسن من قبل.

لكن الحياة لا تعرف التوقف، فقد اشترى الأب قطعة أرض وبنى بها بيتا عصريا فخما، وقد كثر أولاده وكبروا وتزوجوا وأصبحوا جزءا من قريتنا.

أما علي البطل فقد خرج من السجن وبدأ يمارس حياته في قريته، وكان بعض الفلاحين في قريتنا يرددون أخباره من حين لحين.

وفي يوم من الأيام كانت صورته في صفحة الحوادث فقد وقع خلاف بينه وبين جيرانه وكان جيرانه عصبة قوية مترابطة لأنهم أربعة إخوة أقوياء وكانت نتيجة هذا الخلاف أن رفع أحد هؤلاء الإخوة يده ولطم علي البطل لطمة موجعة على وجهه ولم يستطع علي البطل أن يرد له اللطمة بلطمة فاشتعلت نفسه حنقا وغضبا وعلى الفور دخل إلى بيته وأحضر رشاشه الآلي وذهب إلى هؤلاء الإخوة في بيتهم وأطلق وابلا من الرصاصات المتتابعة التي قضت عليهم جميعا.

ولم يكتف بذلك بل إنه أحضر جراره وحمل رشاشه بعد أن ملأه بالرصاصات مرة أخرى، وجاء بهم واحدا واحدا في الشارع الواسع وجعل يمر عليهم بجراره وأهل قريته ينظرون ولا يجرؤ أحد على إيقاف هذا العنف المبالغ فيه.

كان منظر ارتطام أجسادهم بعجلات الجرار الثقيلة وبأرضية الشارع القروي غير مألوف تماما في قرانا.

على الفور جاءت قوة من المركز وأمسكوا به وذهبوا به إلى السجن وتم الحكم عليه بالإعدام شنقا.

وقبل إعدامه ذهب أبوه إلى السجن لزيارته فاقترب علي البطل من أبيه المسن ووضع إصبعه بحدة بالغة في إحدى عينيه فأصابها تماما بالعطب وأبوه يصرخ فقال له ابنه علي البطل: هذا جزاء لك لأنك لم تنصحني مرة واحدة بالتوقف عن العنف الذي أنهى حياتي بل كنت دائما ما تشجعني عليه.

في حجرة الطبيب

أجلس مع صاحبي الطبيب في حجرة الكشف بالمستشفى الخاص مساء، وفجأة دخل علينا مريض حين أبصرت وجهه تذكرت عم سعيد، ولكنني بعد التدقيق فيه تأكدت أنه ليس هو، ولعلك ستسأل أيها القارئ من عم سعيد هذا؟ ولذا أرى لزاما عليّ أن أخبرك عن عم سعيد، فقد كان يجلس في الجراش المواجه لعمارتنا حتى تشرق الشمس، ويذهب أصحاب السيارات إلى أعمالهم، بعد أن ينهض بهمة واضحة في مسحها وتنظيفها. ثم يعود إلى الجراش فينام في النهار، معوضا سهرته الليلية المتواصلة.

عم سعيد رجل مخلص جدا، يحرص أشد الحرص على أداء عمله بإتقان في حراسة السيارات، فلا يقترب من أية سيارة في الجراش إنسان أو حيوان، هذا فضلا عن تنظيفها تنظيقا واضحا. وتظهر على محياه سيماء الطيبة الواضحة والقناعة التامة، وهو يؤدي الفرض بفرضه، وكثيرا ما كنت أراه خارجا من باب المسجد معنا بعد صلاة الجمعة ونسلم عليه ويسلم علينا. وكانت نفحات سكان العمارة عليه لا تنتهي من مأكولات شهية وأموال دائمة.

وفجأة انحرف تكتك عن مساره وأصاب عم سعيد إصابة بالغة، كان من نتيجتها كسر في الحوض ورضوض في العظام. دخل عم سعيد مستشفى أم المصريين، وأنا أعلم أنه وحيد وغلبان فهو بلا زوجة وبلا أبناء وبلا أهل وبلا أقارب أو معارف.

رأيت أن أذهب لزيارته في المستشفى فقد يكون في حاجة للمال أو للمساعدة، ورغم أنني لا تربطني به صلة قرابة فقد ذهبت لزيارته من باب الإنسانية. ذهبت إلى مستشفى أم المصريين سائلا عن مصاب يدعى عم سعيد دخل المستشفى ليلة أمس، ولكن لم أجد أحدا يدلني عليه، وكلما سألت عنه كانت الإجابة الدائمة لم يدخل أحد بهذا الاسم المستشفى أصلا.

جلست على كرسي في المستشفى بعد شعوري بالتعب والإحباط والاستغراب، وهاتفت صديق عمري وزميلي لكي يأتي إليّ. وظللت جالسا في انتظاره، وفجأة وجدت ممرضة منقبة جالسة على الكرسي الذي أمامي. فقلت لها أنا أبحث عن عم سعيد وهو رجل لا أعرف غير اسمه فقط فهو ليس قريبا لي وليس عندي بأسرته معرفة، ولكنه سائس الجراش الذي أركن فيه سيارتي وقد أصابه التكتك أمس وجاء إلى هنا وهو بلا زوجة وبلا أولاد أو أقارب أو حتى معارف، وقد جئت أسأل عنه من باب الإنسانية فقط، فقد يكون في حاجة لوجودي بجانبه.

تعاطفت الممرضة المنقبة معي وقالت فلنذهب سويا للبحث عنه في العنابر فقد يكون له اسم شهرة هو عم سعيد واسم حقيقي دخل به المستشفى. قلت لها يجوز ذلك طبعا. في هذه اللحظة جاء صديقي وانطلقنا نحن الثلاثة للبحث عن عم سعيد عبر العنابر.

وقد وجدناه فعلا، وعرفته وسلمت عليه وكان يبدو منهكا من أثر الحادثة ولكن وعيه كان كاملا، فقال صاحبي له: شد حيلك يا عم سعيد.

فيقول: الشدة على الله، وحد الله يا عم سعيد فيقول له: لا إله إلا الله، وإذا سرح عم سعيد يقول صاحبي: صل على النبي يا عم سعيد فيقول: عليه الصلاة والسلام.

أعطيته مساعدة مالية بعد أن اطمأننت عليه، ثم سلمنا عليه ونحن ندعو له بالشفاء العاجل. وحينما سرنا بعيدا عنه شكرت الممرضة على حسن تعاونها داعيا لها بالبركة في الرزق والسعادة في الدارين وراجيا منها أن تهتم بعم سعيد.

فقالت: على فكرة هو ليس اسمه عم سعيد وإنما اسمه هاني شنودة جميل!.

وبعد أن غادر من ذكريي بوجه عم سعيد حجرة الكشف، دخل رجل آخر، وحينما رأيته ظننته المحاسب الذي في شارعنا، ولكنني أيضا حينما أمعنت في وجهه النظر عرفت أنه ليس هو، ولعلك أيضا ستسأل عزيزي القارئ، وتقول: ومن هو هذا المحاسب أيضا؟ ولذا أجد لزاما عليّ أن أقص عليك قصته، حتى لا تتهمني بالتقصير في حقك من حيث المعرفة طالما قد نصبت نفسي ساردا، وجعلت منك قارئا.

إنه أحد أبناء شارعنا في القرية التي جئت منها، بدا شديد التركيز وهو يلعب في الجانب الهجومي الأيمن لفريقه، يجري بالكرة في حرص بالغ من الخصم ويدفعها للمهاجم الشهير على مستوى قرى المركز كلها، لكي تصل الكرة إلى قدمين تعرفان جيدا أفضل الطرق والمهارات للتعامل معها بطريقة تجعل الجمهور يضج بالهتاف.

كان طويلا أسمر الوجه بعيون مقتحمة، ولكنه رغم ذلك لم يكن من المتفوقين في دراسته فقد نجح بالكاد في الثانوية العامة مما جعل أباه يدخله تعليما جامعيا خاصا بالمصروفات حرصا منه على مستقبله.

لم يبد تفوقا كعادته ولكنه استطاع أن ينجح، وحينما تخرج لم يجد عملا وأخيرا وفر له النائب الشهير عن دائرتنا عملا في إحدى الوزارات الخدمية.

مالبث أن ظهرت مواهبه الواضحة في العمل. وحينما ذهب في زيارة لأقربائه في القرية البعيدة عن قريته وجد فتاة أعجبته فأبدى رغبته في الارتباط بها، وافقت. وساعده أبوه تماما في زواجه الذي لم يكلف كثيرا فقد كانت الفتاة من أسرة طيبة. وأنجب منها ثلاث بنات فائقات الجمال وثلاثة أولاد غاية في الذكاء والألمعية. لقد كان أبناؤه وبناته حديث قريتنا والقرى المجاورة من حيث الذكاء والألمعية وحسن التربية والأدب.

مالبث التحسن المادي أن ظهر عليه وعلى أسرته الكبيرة. تقدم لأخته أشهر شاب في قريته ذلك بعد فسخ خطبته من فاتنة من فاتنات الجمال والوضاءة. لم يكن هذا الشاب الشهير يحب أخته ولم يكن في حالة متزنة تسمح له بالتدقيق في الاختيار ولكنه انساق لمن اقترح عليه الزواج بها ولم يأخذ وقته من التفكير.

كان هذا الشاب يظن الارتباط بهذه الفتاة سهلا ميسورا كما صور له ذلك الذي اقترح عليه الارتباط بها، ولكنه فوجئ بأن الارتباط بها عبارة عن فخ حقيقي بسبب من تعامل أخيها المحاسب الذي لم يكن مراعيا لله في

هذا الارتباط وإنما جعل كل همه تكبيده أكبر خسارة مادية ممكنة حتى لا يفكر من وجهة نظره في الانفصال عنها. كان الارتباط عبارة عن تكتيف حقيقي له ومصادرة تامة لإرادته.

لم يكن هذا الأمر سهلا على صاحبنا وإنما جعله يضج بالتمرد وحاول الانفصال عنها أكثر من مرة، ولكن هذه الأسرة كانت طويلة البال جدا ولا تقيم لرغبته قيمة بل وصل الأمر إلى صنع مقالب قانونية.

مالبثت رائحة هذا الأخ أن فاحت في عمله فقد تناقل الناس في القرية كلها بل والقرى المجاورة قصصا عن فساده المادي واختلاساته وتوظيف بعض الناس في مقابل مادي منهم.

وقد بدأت ثروته تتضخم مما لا يتناسب تماما مع راتبه ودخله الطبيعي. وكان موضوعا لشكوى في النيابة الإدارية التي حققت معه، وفي لحظة انهار هذا العملاق وبدا اهتزازه مدويا أمام هذه الصدمة ولكنه كتب ثروته لأقربائه بعد أن أخذ ضمانات كافية عليهم، وتدخل أحد معارفه في سير التحقيق وخرج من هذا التحقيق المدوي بغير إدانة تذكر، ولكن سمعته أصبحت على كل لسان.

غير أن ثروته الكبيرة المتضخمة ظلت كما هي بل إنها تضاعفت بحسن إدارته وحسن إدارة زوجته. فقد كان حازما في أمور إدارة أمواله وقد منحه الله بركة كبيرة جدا في الصحة والمال والأولاد هذا فضلا عن زوجة مطيعة جدا له منحته السعادة الحقيقية وراحة البال.

وكان بيته يضج بألوان الخيرات وفتح بيته للناس جميعا، وكان كريما سخيا في تقديم الطعام لهم.

أما صلاته وصيامه فقد كانت مضرب الأمثال في حسن قيامها وركوعها، وبدت كلمات الإيمان والتقوى تتردد على لسانه دائما في كل صغيرة وكبيرة، بل إنه كان يبدي حماسا دينيا كبيرا جدا ضد كل من يتهاون في أمور دينه.

حينما كبرت بناته الفائقات الجمال تقدم لهن شباب القرية الأتقياء وارتبطوا بهن رغم أنهم من أسرات دينية محترمة ويردد أفراد هذه الأسرات كلمات التقوى والخوف من الله ليل نهار وضرورة الالتزام التام وتحري الحلال والحرام في كل صغيرة وكبيرة. وعلى الرغم من علمهم العلم التام بما تلوكه الألسنة حول سمعة صاحبنا هذا وحول ذمته المالية فإنهم لم يقيموا بالا لذلك أبدا.

أما الأبناء الثلاثة المتفوقون جدا فقد كانوا محط أنظار أسرات القرية جميعا كل أسرة تريد أن تزوجهم من إحدى بناتها، حتى تقدموا جميعا للزواج من فتيات القرية النجيبات واللائي كن من أسرات شديدة التدين أيضا حريصة حرصا بالغا على تحري الحلال والحرام!

وبعد أن غادر هذا المريض الذي ذكرني وجهه بوجه المحاسب في قريتنا، دخل مريض آخر لا يزيد طوله عن أربعة أشبار، وهنا تذكرت صديقي العاشق الولهان، ولعلك عزيزي القارئ ستسألني ومن صديقك هذا العاشق الولهان؟ ولذا أجد لزاما عليّ أن أقص عليك حكايته حتى لا تتهمني بالتقصير.

إنه عالم نابه، ورغم ذلك يظل على الفيس بالساعات الطوال متعرضا لكل واحدة وافقت على طلب صداقته، حتى بات أمره مفضوحا تماما، فالكل يعرف عنه أنه يعاني معاناة حادة من فراغ عاطفي رهيب.

وعلى الرغم من زواجه من سيدة محترمة، وإنجابه منها خمسة أولاد واقترابه من الستين ربيعا ووقوفها بجانبه تماما على مدار عشرتهما الطويلة بمالها ومجهودها فإنه قال لصاحبه: أريد استئجار الشقة الخالية لديك، كي أتزوج فيها.

قال له صاحبه: ألست متزوجا؟

قال: بلى، ولكنني غير مرتاح مع زوجتي.

كانت هذه المقولة دائما ما يرددها هذا الصاحب الذي يتمتع بموهبة كبيرة في الكتابة الأدبية، ولكنه لا يزيد بأي حال من الأحوال عن أربعة أشبار.

وافق صاحبه وأجر له الشقة.

وظل صاحبنا هذا يحدث صاحبه ليل نهار عن حبه لهذه الفتاة التي تصغره بأكثر من ثلاثين عاما، وكيف أنها مغرمة به ولا تصبر لحظة واحدة على بعده.

قال له صاحبه: هل رأيتها؟

قال: نعم، رأيتها على الفيس بوك. وهي موافقة وأهلها موافقون وغدا صباحا ستأتي لكي نكتب عقد زواج عرفي وستكون أنت أحد شاهدين عليه.

ثم ذهب مع هذا العريس المشتاق إلى إحدى المحال التجارية واشترى معه بطانية ومخدة وبعض اللوازم لهذا الارتباط السعيد.

قرب منتصف الليل غادره في الشقة داعيا له بالتوفيق في مهمته المقبلة. في الصباح الباكر انتظر بجانب تليفونه المحمول كي يرن عليه العريس معلنا قدوم العروس وتوقيعه على عقد الزواج العرفي. لكن الوقت يمر والتليفون لا يرن، ذهب إليه متحرجا في الشقة ودق جرس الباب برقة بالغة وتلطف كبير.

وعلى الفور فتح العريس باب الشقة بل ويدعوه للدخول. أبدى تحرجه من الدخول في الصباحية على عروسين مشتاقين، ولكنه قال له: العروسة لم تأتِ.

وبعد أن خرج ذلك المريض الذي ذكرني بصاحبي العاشق الولهان دخل مريض آخر، ولأول وهلة وقع في نفسي أنه أحد أصحابه الذي ظل يعاني مع زوجته حتى الآن.

ولعلك عزيزي القارئ ستسألني ومن هو صديقك هذا الذي ظل يعاني مع زوجته حتى الآن رغم مرور السنوات الطوال على زواجهما؟ ولذا أجد لزاما عليّ أن أقص عليك حكايته حتى لا تتهمني بالتقصير.

كان في مكانة اجتماعية فائقة وكانت هي موظفة عادية، ولديهما خمسة أولاد في مراحل التعليم المختلفة، وكانت تكلفة تعليم هؤلاء الأولاد الخمسة باهظة جدا، فكان الأب ينهض بتبعات ذلك في عزيمة لا تعرف

الانكسار وكان مرتبه يصل إلى خمسة أضعاف مرتب زوجته. فكان ينفق على كل المطالب من مصروفات دراسية باهظة جدا ومتطلبات البيت الكثيرة المتنوعة. أما هي فقد كانت لا تنفق شيئا أبدا من راتبها على ذلك. وكانت كلما حدث تقصير بسيط غير مقصود تقيم الدنيا ولا تقعدها عن عجز الزوج عن الإنفاق، وتشحن نفسيات الأولاد ضد أبيهم المقصر الذي يتقاضى راتبا خياليا ويبخل عليهم ويجعلهم يعيشون في ضيق، وقد عرف كل معارفهم بقصة هذه الخلافات الدائمة بينهما.

كانت ابنته الكبرى تحتاج إلى مبلغ كبير فوري ليس معه منه شئ، فكلم معظم أصدقائه في اقتراض هذا المبلغ، ومعظمهم اعتذر له بضيق ذات اليد. وأخيرا حدثت انفراجة حينما أبدى أحد معارفه موافقته على إقراضه، ولم يكن من أصدقائه، كان ذلك فجرا، فأعطى المبلغ لابنته الكبرى التي سافرت إلى كليتها، ثم سلم عليها وذهب مبكرا إلى عمله.

حينما كان في منتصف الطريق إلى عمله رن هاتفه المحمول وإذا بابنته الصغرى تطلب فلوس الدرس الخصوصي، فقال لها حينما يعود من العمل ولكنه سمع صوت زوجته غاضبا هادرا وهي تقول لها: قلت لك إنه لن يترك لكِ مالا، غيبي من درسك وافشلي بقى. أغلق الهاتف ثم نظر إلى الفضاء العريض من خلال نافذة السيارة التي تقله إلى عمله فوجد قطع السحاب ذوات التشكيلات وهي تمضي في الأفق البعيد.

ولكنني حينما أمعنت النظر في وجه هذا المريض لم أجده صاحبي الذي حكيت لك عنه عزيزي القارئ.

وحينما خرج هذا المريض أمر صاحبي الطبيب بأن يأخذ عشر دقائق راحة ريثما نشرب كوبا من الشاي.

بعدها دخل مريض آخر، ولأول وهلة وقع في ظني أنه صاحبي الذي تزوج دون علم أسرته وأنجب، ولكن أمره قد افتضح.

وقبل أن تسألني عزيزي القارئ المتلهف عنه أقول لك: حين ذهب ابنه لأخذ شهادة الإعفاء من الجيش المصري لأنه وحيد أبويه فوجئ بأنه ليس معفى، فله أخ من أم ثانية، ذهب غاضبا إلى أبيه المهندس وقال له: سأخبر أمي بهذا فقال له الأب: أرجوك لا داعي لإخبارها، لكن الابن صمم على ان تعرف أمه، فرجاه الأب ألا يخبرها هو ويترك أمر إخبارها له، فهو يريد أن يخبرها بنفسه. وافق الابن.

ذهب الأب إلى النادي مصطحبا زوجته معه، وكان سخيا كريما وفي منتهى اللطف معها في ذلك اليوم، كانت أشجار النادي تتمايل مع نسمات هواء القاهرة الساحرة، وهو يمسك يديها بحنان بالغ. ذكّرها بأيام الخطوبة اللاهبة. في حين كان النادي يموج بأصحابه من الطبقة البرجوازية المصرية. قال لها أثناء لقائهما الحار خبرا بدا تأثره شديدا وهو يقوله فقد قال لها: إن صديقه الحميم وقع في مشكلة خطيرة فجأة.

أبدت اندهاشها واستعدادها التام لمعرفة الخبر فقال لها: لقد تزوج سرا ولكن امرأته عرفت وهي مصرة على الطلاق الفوري.

قالت: إنها غبية كيف تطلب الطلاق الفوري وتتنازل عن زوجها بهذه

السهولة، كان من المفروض عليها ألا تستسلم أبدا وتقاتل من أجل زوجها وأولادها.

فاطمأن قلبه قليلا ثم قال لها: وصديقي الآخر فعل نفس الفعلة وكان رأيها قويا لا سبيل إلى زحزحته وهكذا حتى ذكر لها خمسة من أصدقائه وهي ترد الردود نفسها ولا تغير من موقفها.

حينها قال لها: وأنا أيضا تزوجت وعندي ولد عمره أحد عشر عاما.

حينها صرخت في وجهه أمام الجميع قائلة: طلقني فورا.

ولكنني حينما أمعنت النظر في وجه هذا المريض لم أجده صاحبي عزيزي القارئ.

وحين دخل المريض التالي ظننت لأول وهلة أنه صاحبي الذي قيل عن عشيقته عيناها تشبه عينيه تماما.

وقبل أن تسألني أيضا عزيزي القارئ ـ الذي أضعك الآن في ذهني وأنا أكتب ـ عن هذا الصاحب، أقول لك: لقد ظل صاحبي هذا منتظرا في ضجر واضح مجئ الأتوبيس الذي تأخر كثيرا، وفجأة وجد بجانبه فتاة ذات لون خمري وشعر ينسدل على ظهرها، راح ضجره على الفور، ونظر إليها ونظرت إليه، وسألها: كم الساعة الآن؟ فقالت: الساعة الآن الثانية. قال: يااااه منذ أكثر من ساعة وأنا أنتظر الأتوبيس، قالت شكله لن يجئ.

قال: لماذا ننتظر إذن؟ قالت: وماذا نفعل؟ قال: نسير على الكورنيش فقد نصل قبل مجيئه.

سارت معه على الكورنيش، وقد مرت سفينة ساحرة أمامهما على صفحة النيل الخالد، وداعبت جبهتيهما نسمة رقيقة. اصطدمت قدمها بحجر صغير فجأة، فاهتز جسمها اللدن على الفور مد يده وأمسك يدها. اشتبكت اليدان في عناق ساحر، وسرت رعشة خاصة في جسميهما الفائرين، وكم أحسا بأنهما قريبان جدا من بعضهما. جلسا في مكان منعزل على الشاطئ، ثم استغرقا في قبلة حامية ممتدة. وشعرا بضرورة لقائهما في مكان يجمعهما منفردين دون رقيب.

كان الحصول على مكان ينفردان فيه عسيرا حقا. فهي تقيم مع أسرتها وهو يقيم مع أسرته. ولكن تفكيره هداه إلى أن يصطحبها إلى السويس لزيارة صديق له يسكن في منطقة شعبية، ولأسرته حوش كامل.

اشترى سبتا وملأه بالفاكهة والفطير المشلتت الذي اشتراه من إحدى الفلاحات التي تبيعه في القاهرة واصطحبها معه على أنها أخته. وجد ترحابا شديدا من أسرة صديقه، وقوبل بترحاب كبير وصنعت له هذه الأسرة وليمة فخمة فأكل هو وحبيبته. ثم خصصا لهما دورا كاملا لمبيتهما كي يأخذا راحتهما.

كانت ليلة هائلة من الغرام اللاهب تكلمت فيه الخلايا وارتطمت الأجساد، وكانت الشهوة الحمراء في أشد عنفوانها.

في الصباح بعد أن صعد لهما الإفطار في الدور المخصص لهما، نزلا وقد سلما على أهل المنزل بود شديد، وحينما مضيا وغابا عن الأبصار قالت أم صاحبه لأبيه: سبحان الله عيناها تشبه عينيه تماما.

ولكنني حينما أمعنت النظر في وجه هذا المريض لم أجده صاحبي عزيزي القارئ.

وبعد خروجه بدقيقة واحدة لا أكثر ارتج قلبي ذلك حينما سمعت اصطكاك الباب فجأة، حيث سمعنا صياحا كثيرا، وفجأة دخلت العروس وهي مصابة بنزيف حاد بعد دخول عريسها بها، ودخلت أمها وأختاها معها، في حين وقف الزوج ورجال العائلة بالخارج، أغلقت الأم الباب بسرعة فنهض صاحبي الطبيب، سائلا: ما الخبر؟ فتم إخباره بالأمر. فقد دخلت عروس مع امها وأختيها، واستلقت هذه العروس على السرير، وجاء الطبيب بكشاف لامع وجعل ينظر ويدقق في سبب هذا النزيف الحاد، ثم قال بشهقة ما هذا؟

فانتبهت الأم له بشدة فقال: إنها مركبة غشاء بكارة، والذي ركبه لم يركبه بطريقة صحيحة، وإنما خاطه في جدار الرحم، مما تسبب في هذا النزيف الحاد.

قالت الأم بحزم وقد تغير وجهها في تشنج واضح: لو نطقت بكلمة واحدة عن هذا الموضوع ستقتل فورا، وأنا مستعدة الآن أنا وبناتي أن نصرخ بعلو صوتنا ونتهمك بمحاولة اغتصابها أو اغتصاب إحدى أختيها.

فسكت الطبيب وجعل يعالج الجروح الدامية ويعطي حقنا ومسكنات حتى انتهى النزيف وارتاحت العروس قليلا بعد شرب كوب كبير من العصير.

وأثناء انهماك الطبيب في عمله، انتفضت ذاكرتي وأنا أسرق النظر لوجه العروس فقد عرفتها، وعرفت زوجها، وهما لا يعرفاني، وإنما صديقة مشتركة كانت قريبة مني جدا هي التي قصت علي قصتها، فنظرت إلى العروس، وكنت أعرف ما حدث لها، فأحسست بأنها رجعت بذاكرتها إلى الوراء، إلى ذلك اليوم الذي أعرفه وفقدت فيه بكارتها، فقد كانت تعمل في شركة كبيرة جدا يملكها أحد أقاربها. وقد وقعت في حب رئيسها في القسم الذي أوكل له قريبها مهمة تعليمها أصول الشغل.

ولكن سرعان ما أبدى رئيسها في القسم اهتماما كبيرا بها، فتقبلت هذا الاهتمام بقبول حسن، بل إنها منحته بمرور الوقت اهتماما أكبر من اهتمامه، وهنا كان طائر الحب السماوي يمر بعبيره الفائق عبر الشركة وأقسامها وعلى الشوارع المؤدية لها وعلى السلم، بل إن هذا الطائر الساحر أقام عشه الرقيق في ذؤابة دوحة مورقة بجانب العمارة التي تقع فيها الشركة.

إنها تتذكر الآن مساء ذلك اليوم في الشركة حيث غادرها كل العاملين وظلت وحدها في القسم . دون أن يكترث أحد، أو يأخذ باله أصلا . مع هذا الحبيب العاشق، منهمكين في الحسابات والمراجعة، لأنه من الضروري تسليم هذا الملف كاملا في الغد لصاحب الشركة بسبب صفقة كبيرة. وبعد الانتهاء من العمل تنفسا الصعداء وانزاحت عن كاهليهما مهمة ثقيلة، وفي غمرة الفرح بهذا الإنجاز أمسكا بيد بعضهما في فرح ظاهر، ولكن كانت تلك هي الشرارة التي سرت في جسديهما فانتفض الجسدان، وأحس كل منهما برعشة كبيرة، فأمسك يدها بين كفيه، ثم قبل

باطن يدها فاتسعت عيناها، وهنا مال عليها بجسده اللاهب، وقبلها قبلة في وجنتيها أصابتها بالاحمرار الوردي، ثم احتضنها فاستسلمت تماما له وهي تشعر بانتفاضة مزلزلة في جسدها لم تعرفها من قبل، وانتهى هذا اللقاء الحميم جدا بفقدانها بكارتها.

وحين بدا الحزن على وجهها طمأنها رئيسها العاشق بأن زواجهما حتمي، فانزاحت غمة كبيرة من على صدرها، بل إنها احتضنته حضنا طويلا، وقبلته بين عينيه.

ولكن كالعادة ظهرت نذالة هذا الرئيس العاشق بعد أن استمتع بها فترة، ووجد عملا آخر بأجر أعلى، وحينما طالبته بتنفيذ وعده قال لها: إنه متزوج وعنده أولاد، ولا يستطيع أن يرتبط بها.

لكم كان حزنها ثقيلا وطويلا، ولكن صديقتي المشتركة معها اقترحت عليها ألا تخبر أحدا أبدا، وتذهب معها إلى الطبيب لعمل غشاء بكارة.

فوافقت ولكن الطبيب لم يكن متمكنا مما جعلها تنزف هذا النزيف في ليلة الدخلة.

وبعد أن انتهى صاحبي الطبيب من عمل الإسعافات اللازمة لهذه العروس النازفة في ليلة الدخلة، وبدا التحسن واضحا على وجهها وجسمها، وشربت العصير المنعش فتح الباب فدخل زوجها ومن معه، قالت له الأم بنظرة ذات معنى: ترفق بالعروس قليلا، فنحن لم نر مثل هذه الفحولة من قبل.

فهز العريس كتفيه بفخار كبير وقد احمر وجهه فرحا وفخرا، وقال: ماذا نفعل كل رجال عائلتنا هكذا!

وهنا وصلنا إلى ساعة متأخرة من الليل فخرجت في صحبة صاحبي الطبيب هذا وركبت معه سيارته وسرنا في شوارع القاهرة الساحرة، ووصلت إلى بيتي أخيرا، ولديّ عزم واضح على الذهاب إلى طبيب عيون.

هدى

حين جلست أنا وصاحبي على المقهى في إحدى المقاهي الكثيرة بقاهرة المعز لا أدري ما ذا حدث لعينيه حينما نظرت إليهما، فقد لمعتا ببريق حزين، وكأن شعاعا من الماضي السحيق أطل باهتا في البداية، ولكنه ما لبث أن أصبح شعاعا قويا باهرا، فاستسلم صاحبي للحكي، فتركته تماما من غير أن أقاطعه أبدا، فقال: على السكة الزراعية المؤدية لقريتنا بعد عودتي من مدرستي الثانوية، فقد كنت في الصف الأول الثانوي، أمسك بيدي رجل مهيب الطلعة، حسن الهندام والسمت قائلا أنت قريبنا، ألست ابن قمر؟ قلت له: بلي.

قال: إذن أنت قريبنا.

وسار معي على السكة الزراعية ببدلته المهيبة، وقد انطلق في حديث دائم لا يمل عن الماضي، وقصصه المدهشة وأنا مأخوذ ببلاغة هذا القريب الذي عرفت أنه ابن عمة والدتي. وكانت المساحات الخضراء تمتد على امتداد البصر، وأشجار الجميز والصفصاف على شاطئ الترعة المتعرج، وكثيرا ما كان يلقي علينا السلام بصوت جهوري أحد الفلاحين الراكبين دوابهم، فنرد عليه التحية بخير منها. حين وصلنا إلى بيته سلم عليّ بعد أن ألح في دعوتي من أجل تناول الغداء معه، ولكنني شكرته شكرا جزيلا.

بعد أن دخل البيت حانت مني التفاتة إلى منزله الذي يختلف كثيرا

عن بيوت الفلاحين في قريتنا. فهو مكون من طابقين، وبه كثير من الشرفات التي تطل على حديقة متسعة، لها عبق ريفي خاص، وله مدخل يشرح الصدور، ولجدرانه ألوان زاهية تدل على رفعة في الذوق وتميز في المكانة. كان قريبي هذا موظفا حكوميا عرفت مواعيد عمله فتعمدت أن أجعل مواعيدي مطابقة لمواعيده حتى أستمتع بلذة الحديث معه في الذهاب والإياب.

وفي يوم من الأيام دعاني وألح في الدعوة فقبلت دعوته شاكرا، ودخلت هذا البيت المهيب. حين دخلت وجدت صالة متسعة جدا ذات أُثاث متناسق، وستائر لها حفيف، واستقبال حسن من قريبنا.

بعد هنيهة رأيت طفلة في الصف الرابع الابتدائي ذات وجه ملائكي ساحر، وقد قصت شعرها كاريه، وتلبس جونيلا فبدت لي وكأنها سندريلا. وإذا بالأب يقول لها سلمي علي قريبنا فسلمت في حياء وخفر، وكان ملمس كفها في يدي ذا ليونة ونعومة خاصة جعلت قلبي يهتز لسحرها الملائكي. لقد قطعت طريق الحب في قفزة واحدة، إذ سرعان ما خفق قلبي بحب هذه الطفلة الفاتنة، فكثر ترددي على منزلهم وصاحبت الأب أكثر وكان لها أخوان يكبرانها: أحدهما أكبر مني بعام والثاني أصغر مني بعام فصاحبتهما، بل وصاحبت أولاد الشارع، فتوطدت علاقتي بشارع حبيبتي، ولا أكاد أغادر هذا الشارع فأصبح كل لعبي فيه.

ما زلت أذكر أمسيات صيفية كنا فيها أنا وأولاد الشارع بل وبعض أولاد القرية، نأتي بزجاجات فارغة نملؤها بالجاز، ثم نضع فيها فتيلة طويلة

من التيل، ونحكم سدادتها بالطين، بعد أن نخرج جزءا مناسبا من الفتيلة من خلال فتحة الزجاجة، ثم نعلق زجاجاتنا في حبل طويل ممتد، ثم نشعل طرف الفتيل الظاهر من هذه الزجاجات، ونربط طرفي الحبل الطويل في حديدتين من نافذتين متقابلتين بعرض الشارع الضيق، فتنير المصابيح، وهي عالية مرتفعة، في حين نهتف بصوت مرتفع تسمعه القرية كلها فرحين مهللين لهذه الزجاجات المنيرة، وكان جل ما يشغلني وجه حبيبتي الملائكي، وهي تهتف مع الأطفال فرحة بالنور في الشارع.

لقد كانت عاطفة الحب التي ملكت عليّ كل كياني مصدر سعادة لا ينضب معينه، فاعتنيت بمظهري اعتناء شديدا واعتنيت بنظافتي الشخصية، وكنت كثيرا ما أغسل وجهي بالماء دون كلل.

وكثيرا ما كنت في المساء أصعد سطح بيتنا الريفي وأنصت لهمسات النجوم الحالمة، وحينما تصعد مركبة القمر الفضية وتعتلي هضاب السحب المتراكمة، وتظهر ثم تختفي لتعاود الظهور كنت أرسل في خفية رسائل الحب لها كي ترسلها عبر الشرفات لحبيبتي الحالمة.

كان الهواء المضمخ برائحة الحقول الندية يملؤني بالحياة الخالدة، وأصبحت الحياة بالنسبة لي تفتح في كل لحظة بواباتها الذهبية على عالم خيالي، فأصخت السمع لأغنيات خالدة لأم كلثوم وفيروز وعبد الحليم حافظ وغيرهم.

وكانت كتابات جبران خليل جبران تفتنني بصورة خاصة. وكثيرا ما أسمع عبر اليوم قصيدته الرائعة سكن الليل بصوت فيروز وألحان موسيقار

الأجيال محمد عبد الوهاب، وهي تقول:

هبط الليل وفي جوف السكون تختـــبي الأحــــلام
وسعى البدر، وللبدر عيون ترصــــد الأيام
فتعالي يا ابنة الحقل نزور كرمـــة العشـــاق
علنا نروي بذياك العصير حرقـــة الأشـــواق
اسمعي البلبل ما بين الحقول يســكب الألحـــان
في فضاء نفخت فيه الطلول نســمة الريحـــان
لا تخافي يا فتاتي فالنجوم تكــتم الأخبـــار
وضباب الليل في تلك الكروم يحجـــب الأســـرار
لا تخافي فعروس الجن في كهفهـــا المســحور
هجعت سكرى، كادت تختفي عـــن عيـــون الحـــور
ومليك الجن إن مر يروح والهـــوى يثنيـــه
فهو مثلي عاشق كيف يبوح بالـــذي يضـــنيه

كنت أطلق لخيالي العنان فأتصور نفسي مع حبيبتي وحدنا عبر حقول قريتنا المترامية، وقد سكبت فوقنا نجوم قريتنا أمواجا من رحيق ضيائها الناعم الملمس الحلو المذاق، وراحة حبيبتي الحريرية بين راحتيّ، وقد أبحرت سفينتي عبر بحر عينيها، وكأنني كريستوفر كولومبس يكتشف المجاهل والأعماق، وحبيبتي تمنحني من ودها ما يفتح باب الفراديس الذهبية على مصاريعها، فندخل من أي باب شئنا، وربما تحولنا إلى طائرين سماويين فجأة، فنحلق فوق أنهار الفراديس الهامسة، ونهمس لمياهها بقصة حبنا التي جعلتنا ننفلت من عالم الطين إلى عالم السماء.

وفي مرة صعدت سقف بيتنا الريفي، وكنت أحدق في آخر المساء في صفحات النجوم فأبصرت نجما رقيقا جدا يضع يده الناعمة حول الخصر اللدن لنجمته الحبيبة الناعمة، ويهمس لها بأرق كلمات الحب، فهمس قلبي بالحب أيضا لحبيبتي فقلت لها عبر الفضاء الممتد:

حبيبتي:

هناك في سحيق الزمان كان نهر الخلود يتهادى في العالم العلوي، وأناشيد الملائكة ترفرف حواليه مبتسمة، وكنت أنتِ يا أنا تجلسين على حافة النهر مع آلهة الجمال وربات الشعر. فمنحتني بيديك الرقيقتين كأس الخلود، عندها هام قلبي بك، وأولع. وكانت روحي وروحك توءمين يحلقان في أجواء النهر الخالد.

وفي إغفاءة كالحلم سمعنا السر يترقرق على أفواه الملائكة بأنا سنهبط إلى كوكب الأرض على هيئة البشر، هذا الهبوط كي يصهرنا أكثر، فنبلغ شأو الكمال.

عندها جثوت وقد ابتلت وجنتيّ بدموع الرجاء أمام رب الأرباب كي يجعلنا في زمن واحد، فاستجاب الله الدعاء، وها أنا ذا وأنتِ في زمن واحد.

لكن أن الزمن الغاشم يأبى إلا أن يسدل حجابا صفيقا من البعد، ولكن أنّى له أن يقهر الحب أنّى له أن يقهر الأبدية أنّى له أن يقهر بوابة الخلود.

لأتمردن عليك أيها الزمن، لأهوين بسيفي ذاك الباتر على رأسك تلك الهشة فلا تسطيع بعدها حراكا.

حبيبتي هذه دفقة من دفقات روحي الهادرة وشعاع ما زال يحلق في أجواء روحي حاملا اسمكِ، فهل لديكِ أنتِ أيضا دفقة؟ وهل لديكِ شعاع؟

وبعد قليل من همسي الناعم بهذه الرسالة إلى حبيبتي الناعمة جاءتني رسالتها عبر الأثير فانفتحت نوافذ روحي على عالم سماوي، وإذ بقلبي يتلقي وحي كلماتها، وكانت كما يأتي:

حبيبي:

يا أغلى من نور الصباح وأرق من همسات النسيم. فلتشهد السماوات السبع وبوابات الجنة السبع، ولتشهد كل نجمة وكل موجة ولتشهد كل نسمة على حبي لكَ

نعم نعم إني أذكر عالمنا السماوي قبل هبوطنا على هذه الأرض، ما زلت أذكر الكأس الذهبي اللامع الذي سقيتك منه ما روى ظمأ فؤادك، وما زلت أذكر ذلك النهر المقدس في أعلى عليين حيث كنا نحلق بجناحينا في فضائه الحريري الناعم.

نعم نعم يا حبيبي ما زلت أذكر دموع تضرعك أمام رب الأرباب كي يجعلنا في زمن واحد، وما زلت أذكر فرحتنا الغامرة حين استجاب دعاءنا.

نعم نعم يا حبيبي إن نوافذ روحي الذهبية قد استقبلت إشراقات

حبك الذهبي فأصبحت لا أدري بأي قلب أعيش؟ بقلبي أنا أم بقلبك أنت يا حبيبي؟ أم تراه هو قلب واحد نعيش به سويا؟. فلتشهد نبضات قلبك يا حبيبي بأنني أملك دفقة مثلك أيضا، وبأنني أملك مثلك هذا الشعاع.

حينما استقبلت روحي ذلك الوحي عبر الأثير اطمأن قلبي، ونظرت عبر السماء المرصعة بالنجوم، وهتف قلبي: أيتها السماء إن هذه النجوم المتلألئة كنز خالد تملكينه، وأنا أيضا أملك كنزا روحيا خالدا هو كنز الحب الذي وجد قبل أن نوجد على هذه الأرض، وسيظل بقلبينا حتى بعد أن نغادر هذه الأرض إلى بعيد.

لم أبح بسر حبي لأحد أبدا، ولكن أحد رصفائي وضع يده على كتفي بعد صلاة المغرب، وقال لي: كيف حال حبيبتك؟

قلت له: حبيبتي من؟ ليس لي حبيبة. قال: أنا أعرف أنك تحب هدى.

فأنكرت، ولكن هيهات أن أقنعه، فتركته.

وفي يوم من الأيام جاء صاحبي هذا وقال لي: حبيبتك في المستشفى، فقد جاءت الإسعاف اليوم، ونقلتها إلى المستشفى الجامعي.

مازلت أتذكر خفقان قلبي الفجائي لسماع هذا الخبر، وذهبت إلى أمي وبكيت لها من أجل أن نذهب لزيارتها في المستشفى الجامعي، فأمي قريبة والدها، ولكن أمي ترفض بشدة، فأصر على الذهاب للمستشفى

لزيارة حبيبتي، وأمي تستمر في رفضها، ولكن رفضها تراجع أمام إصراري الشديد، وعزوفي التام عن الطعام والشراب.

ذهبت أنا وأمي إلى المستشفى الجامعي لزيارة حبيبتي المريضة، وحينما وقعت عيني عليها وهي طريحة الفراش وجدتها قد كبرت عشرة أعوام كاملة. جلست أمي مع أمها وأبيها ومن معها من عائلتها وقد اندمج الجميع في حديث متصل، فتسللت وذهبت إلى حبيبتي وجعلت أكلمها، وهي تبتسم لي في جهد بالغ.

أخذتني أمي ورجعنا إلى القرية، وأنا أبصر أسراب الحمام قبل المغرب وهي تحلق في فضاء قريتنا الحزين.

لم أدر كيف غلبني نعاس ثقيل وأنا ممدد في سريري، وقد رأيتني في حديقة متسعة، ومعي هدى، ونحن فيها وحدنا، وقد وضعت يدها في يدي، وقالت لي: أنا سعيدة. كنا نضع نصف أرجلنا في ترعة صافية المياه، ونضرب بقدمينا في الماء، فيحدث صوتا مع طرطشة مفرحة.

كانت هدى تضحك وقد ظهرت السعادة الغامرة في وجهها، وأنا أضحك مثلها تماما، وحين فتحت يدي لاحتضانها، ورأيت في عينيها عمق الحياة ونبلها، فأغمضت عيني بسعادة فائقة، وقد تأهبت لعناق يناجي فيه القلب القلب، ولكني أطبقت ذراعيّ على هواء، فتحت عيني فلم أجدها، وظللت أبحث عنها تحت كل شجرة، وفوق كل ربوة، ولكنني لم أجدها، وبعد بحث لا يكل سمعت ما يشبه صوتها يهتف في روحي : يا حبيبي سوف تشتاق إليّ. كان هذا الصوت هو آخر ما سمعته في منامي هذا، لأنني

صحوت بصعوبة على صوت ميكروفون مسجد قريتنا وهو ينعي هدى عبد الحميد الجمل.

فقد جاءت في عماية الصبح، ولكن بعد أن فارقت الحياة. مازلت أذكر حتى هذه اللحظة النسوة المتشحات بالسواد، وهن يتجمعن عند بيت حبيبتي الواسع، وقد تجاوبت صيحاتهن الثاكلة، ولكن رغم هذه الصيحات التي كانت تشق سماء قريتنا الحزين، كانت صيحات قلبي أكثر عمقا، وأكثر حزنا.

ذهبت مع مشيعيها إلى مثواها الأخير، وأنا أنظر في ذهول إلى قبرها، حيث وضع النعش بجانب القبر، دخل أحد الرجال قبرها، والكل يصيح لا إله إلا الله حين استلمها أربعة رجال من نعشها، وكان هؤلاء الرجال من أقرب الأقربين إليها، وأسلموها للرجل الذي في قبرها كي تنام هدى حبيبتي نومتها الأخيرة. وكان صوت قراء القرآن يتجاوب وهم يقرأون سورة يس كاملة، حتى انتهى الرجال من سد قبرها بالحجارة والأسمنت وأهالوا عليها التراب.

وأنا أتأمل في ذهول، مصير هدى، ونزلت مع المشيعين من المقابر، ولكنني حينما تأكدت من مغادرتهم جميعا عدت بمفردي ووقفت وحدي صامتا أمام قبرها، ولكن فجأة ربتت يد على كتفي فالتفت فإذا هو صاحبي الذي يعرف قصة حبي الكبير لها، وقد بدا التأثر التام على وجهه، ثم سحبني في هدوء ونزلنا من فوق المقابر.

رحلت الحبيبة فانطفأ سحر الحياة، وأهملت في لبسي وهندامي، وربما

فتحت صنبور المياه لأغسل وجهي، فأتذكر حبيبتي فأترك الصنبور مفتوحا وأبعد عنه في ذهول دون أن أغسل وجهي، فأنا إن غسلت وجهي لن تراني هدى حبيبتي.

الآن قد مر على رحيل حبيبتي أكثر من أربعين عاما، ولكنني لا أنساها أبدا، وهناك فترات ما تشتعل في نفسي ذكراها فجأة، وحين أنام أجدني أركب فرسا بجانبها وهي تركب فرسا، ثم نطلق العنان لفرسينا فيسبحان عبر حقول قريتنا الممتدة، ولكنني حينما أصحو من نومي فأجدني بعيدا عنها تماما يهتف قلبي بصوت مبحوح لا يسمعه غيري، لا بل ربما سمعته نجوم السماء كلها، وهي في عليائها قائلا: هدى.

وهنا لمعت عينا صاحبي ببريق مذهل، فحدقت أكثر في غوريهما فرأيت فردوسا ملائكيا، وفيه حلقة من الملائكة بدفوفها، وفي وسطهم فتاة فائقة الجمال والطيبة، وقد لبست ملابس العروس، وهم يزفونها، فانتبهت جيدا، فخلتني سمعت صوتها العميق، وهو يهتف بعمق مدهش: ياحبيبي أنا أشتاق إليك. وما هي إلا هنيهة حتى تحول بصري إلى مدخل هذا الفردوس فرأيت صاحبي، وهو يسير إليها، وفوق رأسه جوقة من الطيور السماوية الخالدة تعزف لحن لقائهما، فقمت من على المقهى، دون أن أتكلم، نعم قمت وأنا أكثر حكمة وأكثر حزنا.

الفهرس